

کتابخانه ثقافیه

الزهاوی

شاعر الحرية

۱۸۶۳ — ۱۹۳۶

بقلم

انور الجندی

كتب ثقافية
الكتاب ٣٨

الزهادى

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٢٦

بقلم

انور الجندى

تصدير

منذ ربع قرن خلف جديّل صدقي الزهاوى دنيانا • وقد
جاوز السبعين فما ذكره خلال هذه التاريخ الطويل الذى اوشك
أن يكمل ربع قرن من الزمان ذاكرًا الا بضع محاضرات أقيمت
فى معهد من المعاهد العالية وفصل أو فصلين فى مجلة هنا
أو هناك • واذا كان الزهاوى قد لقي الاغضاء من الرجيين
أو الجامدين فلماذا نسيه المجددون وحملة ألوية الفكر الحسر
الناهض • واذا كان أبناء عصره وجيله قد غصوا من قدره
فما باله اليوم وقد ظهر جيل جديد فى العالم العربى يؤمن
بتقدير الاحرار من رجال الفكر وحملة المشاعل فى طريق
التجديد والبعث • هؤلاء الاحرار الذين اذا ذكروا كان جميل
صدقي الزهاوى - بلا جمالة أو مبالغة - من أوائلهم وروادهم
فهو شاعر الحرية الذى احتمل فى سبيل دعوته عنتًا شديدًا
وهجومًا عنيفًا • وهجاءًا قاسيًا • واذا ذكر شعراء عصره فى
مجال التجديد والجرأة والاندفاع نحو أهداف الحرية
والتجديد ، لم نجد من يستطيع أن يسبقه أو يلحقه أو يقف
فى صفه • • فقد كان شعراؤنا فى مصر وسوريا ولبنان والعراق
- فى الاغلب - مجاملين يسيرون فى ركب الامراء محافظين
متشددين يقفون فى الوسط فى معترك التجديد والتقليد • •

ولا يمكن أن يكون شوقي أو حافظ أو مطران أو الكاظمي أو
الرصافي قد طالب بحرية الكلمة أو اندفع في جراءة الزهاوي
ليطالب بتحرير المرأة أو تنقية العقيدة أو تحطيم الأصنام أو
الدعوة للقومية العربية أو مهاجمة الخلافة العثمانية أو الحكومة
الفاسدة أو طغيان الأمراء أو استبداد الملوك أو إجرام
المستعمرين .

ومع هذا فقد لقي جميل صدقي الزهاوي بعد موته نفس
الهوان الذي لقيه في حياته فلم يذكره إلا القليلون ولم يكتب
عنه بعض ما كتب عن شوقي أو الرصافي أو مطران .

وعندما أخذت أدرس حياته بحثت عنه في مطبوعات دور
النشر الكبرى فلم أجد عنه في أبواب الاعلام دراسة ولا في باب
الشعر ديوانا . . ولا في أبحاث الادب رسالة . . ولولا
فصول منشورة كتبت في الهلال والكتاب والرسالة وفي مؤلفات
الريحاني وروفايل بطي وشوقي ضيف ولويس شنجور
وأنيس المقدسي والزيات . . لكان من العسير أن يجد المؤرخ
ما يفيء أمامه الطريق لحياة هذا الشاعر العملاق الذي كنا
نصافح شعره سنوات ١٩٣٢ وما بعدها في الرسالة فنرى ذلك
الوهج القوى اللافح في جرأته وحرارته وإيمانه . . وهو في
ذلك الزمن لم يكن إلا في شيخوخته . . كان في السنوات
الآخيرة من عمره المديد . . وقد هدته الأمراض . . ومع ذلك
فقد كان حيا دافقا يملا النفس . . ويذكر بعظمة المتنبئ

والعري مختلطة ممتزجة .. الأول في كبريائه واعتداده والثاني
في شكوكه وتحرره ..

ولقد كان من الطبيعي أن يجيء اليوم الذي يشير الزهوى
ثورة جديدة في الشعر العربي والفكر العربي وأن بدت أهدافه
وعانيه ورؤاه اليوم وقد تحققت إلا أنه ما يزال رمزا على معنى
الجرأة والقوة والحياة الدافقة .. أنه سيقبل منارا في الفكر
العربي يهدي الى غاية جديدة لم يكن يعرفها الشعر العربي من
قبل وإن يكن مطران قد جدد المعاني فإن الزهوى قد جدد
المعاني وأعطى الشعر معناه الحق في الكلمة الخالدة « ديوان
العرب »

عصر الزهاوى

عاش الزهاوى سبعين عاما من عصر العراق والامة العربية فى فترة من أخطر فترات هذا الشرق .. هى مرحلة التوثب والصراع والانتقال من استبداد تركيا العثمانية الى ظلم الاستعمار البريطانى .. عاش هذه الفترة الضخمة يقظ القلب حتى الوجدان .. متأثرا بالاحداث .. مسجلا لها .. ولم يقف عند هذا شأن الشعراء .. ولكنه كان صادقا يدعو قومه الى كل جديد ، لا يملى الحدا ولا النداء ولا الدعوة مهما أغضب الناس ومهما أغضبه الناس .. انه ذلك الداعى العنيد الذى يتلقف كل جديد من رأى فينقله شعرا ويدعو اليه العراق والعرب .

وقد شب الزهاوى عن الطوق ابان الاحتلال البريطانى لمصر وهزيمة عرابى .. فى نفس الوقت الذى كان العراق يبرز تحت سلطان طاغ هو سلطان العثمانيين ، الذين يكرهون العرب ويسوءون جزءا كبيرا من الامة العربية استبدادا مرهقا عاصفا . وكان عبد الحميد اذ ذاك يقبض بحفنة من الجواسيس على رقاب العباد ويحصى عليهم أنفاسهم .

وسرعان ما خاف الزهاوى مدائح السلطان ، عندما بدت معالم دعوة أحرار تركيا الى مقاومة استبداد عبد الحميد ،

وراح يمزقه وأبلا من شعره أنير دغيا إلى السحور ٠٠ ثم
 تصور التزيح زاحس السحور عجمي ونصر رجب نريه
 الغناء وهما نرى الزهاوى نرى ضاعه مرليب فرحا مبهيجا ٠٠
 تعباً للحرية وتعباً للعراق وسطوعاً إلى فجر جديد في حياة الأمة
 العربية ثم لا تلبث الدعوة إلى نهضة عربية أن تعان حتى يمدد
 فيها ويهاجم أحمد جمال السيف الحاسي التولي غنى شعري بعد
 أن علق على الشافق الأبرار شهيد ٠٠ من صغره الرميل الأول
 للدعوة إلى انفصال العرب عن الترك ومقاومة الحملة العرصة
 لتتريك العرب باسم «الجامعة الطورية»

فاذا بدأ العراق يدخل نى عهد جديد بعد نوره داميه نرى
 الزهاوى يدعو إلى الدستور والبرلمان والشورى وحريه
 الصحافة والاستقلال وتحرير المرأة ٠٠ وينضم موكب الدعوة
 إلى الإصلاح الاجتماعى ويشارك فيه مشاركة فعالة ٠

وهو فى هذه المرحلة الطويلة يهدر بالشعر قويا حيا ذخرا
 بالانفاضة ، فيه صورة ذلك القلب الذى يتحرق إلى حرية
 قومه من أصر الاستبداد والامستعمار والخرافات والافهام
 والجمود ٠

وهو طوال هذا الزمن يسافح عن دعوة الحرية والمجدد فى
 قوة ٠٠ ويكرر ما يقول أحيانا ٠٠ ويندفع فى حماسة بالغة ٠٠
 وقد يكتو ٠٠ وقد يخطئ ٠٠ ولكنه لا يتوقف أبدا ولا يهجم
 أبدا ٠

وقد يكون شعره نظما ٠٠ وقد يكون أقل جودة من شعره
 عصره ولكنه يتفوق عليهم جميعا فى أنه يحمل مضمونه معانى

قوية .. وآراء جديدة .. وحركة دائبة .. وانه يدعو
 ولا يبالي الدعاء الى المحسورية .. ويصرخ ولا يبالي الصراخ
 هذا عن الجديد ... وينادي ولا يتوقف عن المنحصر
 باسم العراق الحبيب الى نفسه ونفوس العرب جميعا . وقد
 عاشى هذا الزمن كله طوال أيامه عابسا متشائما شاكيا
 سخطا مسرفا في العيوس والتشاؤم .. غير متوقف عن
 الشكوى والسخط ذلك ان نفسه الكبيرة وحبه للعراق وايمانه
 بالحرية وتطلعه الى فجر مشرق يرى فيه العرب وقد أصبحوا
 في مقدمة الركب . كل هذا كان يشعره بأن التطور بطيء وان
 التقدم وأن .. وان ما يتطلع اليه من أمل ما يزال بعيدا . أضف
 الى هذا أنه كان يحس بعد أن ارتفع به السن انه لم ينصف
 في قومه ولم يكرم في وطنه .. ولم يأخذ مكانه الحق .. وان
 حملات النقد العاصف وكلمات الهجاء المرير كانت تنتاشه من
 هنا أو من هناك . ونسى انه لم يكن شاعرا يغرد فيجتمع حوله
 الناس ليصفقون له ، وانما كان داعية يحطم قديما باليسا ..
 ويمزق تقاليدا تعارف عليها الناس بالحق أو بالباطل طويلا .
 وانه كان يدعو الى جديد تنظر الجماهير اليه في خوف وقلق
 واشفاق ، وان من شأن من يتصدى لهذا أن لا يجد من عامة أهل
 بيئته الا المعارضة والخصومة .. وقد كان يستطيع أن يدع
 هذا وأن يعيش مادحا ومغردا وسائرا في كل ركب ، عندئذ
 كان يجد من عامة الناس الرضى والاعجاب والتصفيق ، أما وقد
 اختار لنفسه الدعوة الى الحرية والخلاص من أسر التقليد ..

واغلال القديم .. وفجود الجمود .. فلم يكن من المستوقع أبداً أن يواجهه إلا بمثل ما ووجه به على أن الزهاوى يقر الآن في قبره راضياً حين يرى أن دعوته دفعت العرب جميعاً إلى الفجر الصادق .. فبدأت علامات الحرية الحقة ترسم في الأفق .. والوطن تخلص من المستعمر ، والمجتمع يتقدم ، والمرأة تأخذ حقها في العلم والسفور والعمل فتشارك في كبريات الأعمال وتدخل البرلمان وإن علامات الجمود والتقليد والبسود في محيط الدين قد تراجعت وحل محلها اجتهاد وتحرر وعودة إلى منابع الصافية للعقيدة .

وليس شك أن صيحة الزهاوى وثورته المتصلة ودعوته التي امتدت خلال حياته أكثر من أربعين عاماً كان لها أثرها في التطور .. ومكانها في تاريخ حركات البعث والتحرر .

مطلع الشمس - باب

ولد الزهاوى (١) فى يوم الاربعاء ١٨ من شهر يونيو
(حزيران) عام ١٨٦٢ فى بغداد وكان والده محمد فيضى
الزهاوى مفتى العراف ٠٠ وأخوه فقيه من فقهاؤها ٠٠ ويرجع
نسبه الى أمراء السلطانية الذين يرجعون الى خالد بن الوليد
وترجع شهرته بالزهاوى الى أن جده هاجر الى «زهاو» من
أعمال ايران فأقام فيها ٠ وتزوج منها بسيدة زهاوية ٠
أما أم المترجم له فسيدة من أسرة عريقة فى المجد غير

انها كانت عصبية المزاج ولا تدع لراى أحد (٢)
ومن هنا تنكشف لنا حقيقتان : الاولى انه نشأ فى محيط
الفقه والدين وكان والده وأخوه يربذانه صاحب فقه وقضاء ٠
فاندفع خارج هذا المحيط بل لم يلبث أن هاجم هذا المحيط
بشورة على الفقهاء ورجال الدين وهذا اتجاه طبيعى بالنسبة
للزهاوى العنيد من ناحية وبالنسبة لرغبته فى التبريز عن
١ - زهاوى زاده جميلى صمدى افندى كما ورد اسمه فى
الكتب القديمة

٢ - من رسائل الزهاوى الى أحمد محمد عبيش ٠ ملحق
السياسة الاسموعية ٧ يناير ١٩٣٢ .

طريق مخالف لطريق أبيه وأخيه والآخرى .. ان أمه كانت
عصبية المزاج ولا تدعن لراى أحد . وقد ورث الزهاوى منها
هذا الطبع وعرف به .

يقول الزيات : كان أمه يريدونه صاحب قضاة ، وفقه ،
ولكن عناده دفعه أن يديم السمع فى الآداب .. ثم بدأ ينظم
الشعر فكان صاحب دعوه وفلسفه وان الاستعداد الموهوب فى
الطبع وهو منميته الخلق فى حصى . جعن من الزهاوى
أبا العلاء وقد كن أمه يريدونه أبا حنيفه .

ويرد بعض المؤرخين جراءة الزهاوى لى عرق النعم والخال
من الكردية .

وقد تعلم الزهاوى تعليما دينيا .. فقد ذهب لى الكتاب
فى سن الخامسة ومكث فيه لبضع سنوات بليدا لا يتقدم
ولا يهتم بغير اللعب ونظم الاشطر الفارغة من المعانى .

وكان كثير الحركة محبا للعب أكثر من اخوته وأترابه ..
متمردا لا يدعن لراى .. يقول الزهاوى فى رسالته (١) : كنت
فى صباى أدعى بالجنون لحركاتى غير المألوفة .. وفى شبابى
بالبائس لخصتى وايقالى فى النجو . وفى كهولتى بالجرىء
لمقاومتى للاستبداد . وفى شيخوختى بنزديق لجامعرتى
بارائى الحرة الفلسفية .

وقد تعلم كثيرا من علوم الاولين فلم يشبع عقله . واستطاع
أن يقرأ كثيرا مما ترجم الى العربية على أساتذة مختصين .
(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

ثم قرأ عن الفارسية والتركية بعد أن أجادهما ومعنى هذا أن علامات الثورة ولدت مع جميل وأن روح التمرد وعدم لادعاء لاحد . . كانت من أول ملامح صباه وقد طلعت عنه العواطف تتفاعل في نفسه طوال حياته .

ولعل أمرا آخر كن له أثره في تكوين طبيعة الزهاوى وشخصيته : يقول الزهاوى (١) كنت والسدى نعيش مع أولادها في بيت منعزل عن بيت والسدى فنزعتي والسدى من أحضانها دون اخوتي وإخواني . . وأخذ على عاتقه تربيته تربية خاصة متبعا هراه . وكان من هواه الأدب . . وكان شاعرا في الفارسية والعربية معا غير أنه مقل فيهما .

ولعل هذا الحادث له أثره في نفسية الزهاوى . . فإن انتزاعه من أمه دون إخوته لابد أن ترك في نفسه إحساسا بالانتماء والضيق أضيف إلى عواطف نفسه فزادها ثورة وقلعا واضطرابا ثم ابتلى جميل في الخامسة والعشرين من عمره بداء النخاع الشوكي الذي لازمه بقية حياته ولم يلبث بعد ذلك أن أصيب بالشلل في رجله .

ويقول أحمد محمد عيسى (٢) إن جميل حفظ جزء «عم» بعد ثلاث سنوات . . ثم قرأ جميع أجزاء القرآن وحفظ منها ما استطاع وفتح ذهنه شيئا فشيئا . . وقرأ على بعض العلماء مبادئ الصرف والنحو والمنطق . . وقليلًا من البلاغة . . ولما

(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصري يناير ١٩٤٧

(٢) السياسة الأسبوعية - ٧ يناير ١٩٣٢

وأهم لا يسبعون جشعه .. ولا يروون غلته .. ولا يقلعون له
بأجوبتهم على أسئلته العويصة عن الألوهية وما شاكلها رجع
إلى أبيه غضبان أسفا .. قائلا له :

هؤلاء شيوخ جامدون

قال والده : ويل لك يبنى أنت ومن على شـساكتك من
الشيوخ الجامدين ..

وهذه هي أول معالم الثورة .. ولابد أن ذلك كان في سن
العشرين أى عام (١٨٨٣) وهذا التاريخ عندما بدأ حياة
الزهاوى الأدبية وعلامة الطريق الطويل الشاق الذى قطعه
محملاً بوراثياته وعوامل بيئته .

ولقد كان والده يشفق عليه من ثورته ونزعته الجريئة إلى
التمرد . ويروى أنه استدعى ابنه إليه فى ليلة من ليالى
الشتاء الباردة .. كان قد أهله عيادة جميلة .. وقال :

- ألبس .. يا جميل عباةك فأنى أخاف عليك البرد

ورد جميل على طريقته المتمردة الجريئة :

- يا أبى انى لأبس الغرفة فمن أين يتسرب البرد الى .

وصمت والده ولم يزد على أن نظر إليه فرأى بريق الذكاء
الحاد ينفذ من عينيه الواسعتين وقد رفع رأسه الكبير فى
زهو وثقة ..

وقد قسم جميل شبابه بين اللعب والقراءة .. كان يلعب
بالكعاب ثم بالحمام القلاب فيطيره أسرابا فى الهواء . كما
أولع بركوب الخيل فكان يسابق ويسبق كما أحب لعبة الداما

وقد ألف فى هذه الألعاب رسائل نشرها فى المقتطف
والهلال .

ومن ناحية أخرى أكب على قراءة المتنبي وتفسير البيضاوى
وغيرها من المؤلفات الضخمة التى كانت تحفل بها مكتبة أبيه
وقال الزهاوى فى بعض كتاباته (١) طالعت فى شبابه
مؤلفات الدكتور فانديك المطبوعة فى بيروت وكتابى أصول
التشريع والفسيلوجيا لورتبانت . وبضعة مجلدات من المقتطف
كانت قد نشرت يومئذ فحصل لى بسبب هذه الكتب الاطلاع
على أساسات العلوم العصرية ، ثم توسعت فى هذه العلوم فى
كهولتى بمطالعة كتب مترجمة الى التركية . وأكثر من قراءة
الروايات يومئذ من الفرنسية الى التركية . . فحصلت على
شئ قليل من العلم بعادات المجتمع الغربى وأفكاره منها
البؤساء لهوجو فى مجلدين ضخمين . ولم استغن حتى اليوم
عن مطالعة الكتب المترجمة الى العربية أو التركية .

(١) الكتب التى أفادتنى مجلة الهلال - ١٩٢٧

حياته

من الاعلام من تكون حياتهم خطأ واحدا مستقيما لا أحداث فيه ولا تقلبات ومنهم من تضطرم حياته بالأحداث صاعدة هابطة • دافعة مندفعة • هادرة لا تتوقف ولا تسكن • ومن هؤلاء جميل صدقي الزهاوى فقد كانت حياته الطويلة حافلة متحركة وهى الى ذلك خصبة غنية فيها الجديد دائما وفيها الصراع والارتطام والاختصاص لا يتوقف ولا يهدأ ولا ينين •

والزهاوى منذ اليوم الاول حتى اليوم الاخير هو : الثائر المتمرد الجرى، الذى يعارك ويخلق ميادين المعركة ويواجه الناس بالجديد والغريب مما يغيظ ويشير •
قلمه هو متنفس حياته •• ونافذة روحه ••

ولقد ذهب الزهاوى شمالا وغربا وشرقا •• وعمل فى أكثر من عمل • وهو بطبيعته القلقة لا يقرر ولا يتوقف • وانما يتحرك ويتحرك دائما •• عينته الحكومة التركية فى أول شبابه عضوا فى مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لطبعة الولاية ومحررا للمقسم العربى من الجريدة الرسمية «الزوراء» ثم عضوا فى محكمة الاستئناف ثم عين عضوا فى مجلس المبعوثان عن بغداد ولما أعلن الدستور عين أستاذا للفلسفة فى المكتب الملكى بالاستانة ثم معوسا للاداب العربية فى دار الفنون ثم عاد الى

بغداد فعين أستاذا للشرعية في كلية الحقوق ثم نائبا في مجلس الشيوخ العراقي .

وفى خلال ذلك سافر الى مصر وسوريا وذهب الى اليمن بإرادة سلطانية « واعظا عاما » وعضوا في الجمعية الاصلاحية وبقي فيها تسعة أشهر .

وهاجر الى سوريا ومصر . وأقام بالشام وبيروت فترة ثم عاد الى العراق

هذه ملامح الصورة العامة لحياته العملية ولكنها تحوى أغوارا بعيدة المدى فانه لم ينس خلال حياته هذه شعره ولا أدبه كان ينشر فى المجلات والصحف فى مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة أيام الاستبداد الحميدى بامضاء مستعارة .

وعندما سافر الى استانبول اجتمع بالأتراك الاحرار وجهر بالسخط على نظام الحكم القسائم اذ ذاك . ونظم عددا من القصائد نشرت فى المؤيد . وعاش تتعقبه الجواسيس . وكانت النهاية أن سجن وحمل مقيدا الى بغداد .

يقول الزيات (١) : رأى فى الاستانة عبد الحميد يلقى الاحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر فأرسل اليه مع أبى الهدى قصيدة قال فيها :

أيأمر ظل الله في أرضه
 بما نهى الله عنه والرسول المبجل
 فيفقر ذا مال وينفى مبراً
 ويسجن مظلوماً ويسبى ويقتل
 تمهل قليلاً لا تفض أمة إذا
 تحرك فيها الفيض لا يتمهل
 وأيديك أن طالت فلا تغتر بها
 فإن يد الأيام منهن أطول
 فحبسه حيناً ثم نفاه . .

وسمع وهو عضو في مجلس المبعوثان عن بغداد مقرر
 الميزانية يذكر في وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال جعلوه
 لقراءة البخاري في الاسطول فقال : أنا أفهم أن يكون هذا
 المبلغ من وزارة الاوقاف . . أما الحربية فالمفهوم أن الاسطول
 يمشى بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس وشغب عليه
 العامة .

ولما دعاه الخليفة الى الاستانة ، أقض مضاجع الجاسوسية
 فانتقص أمره وساء مقامه .

ويروي الزهاوي في إحدى رسائله الى أحمد محمد عيشي
 أخرج ساعات حياته يقول : ان أخرج ساعاتي هو يوم هاج
 الشعب العراقي على عام ١٩١٠ لمقالة شديدة نشرتها في
 « المؤيد » في الدفاع عن المرأة حتى اني قبعتم في داري أسبوعاً
 ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب المارد لي . وعزلني يومئذ
 والى بغداد ناظم باشا من وظيفتي في مدرسة الحقوق ببغداد

وفد تزوج الزهاوى فى سن الثلاثين بالانسة زكية هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لهما ولد وخدمته فى شيخوختى باخلاص وأمانة (١) .

وقد عاش الزهاوى (٢) بالرغم من الامراض والشلل والنوبات العصبية ، ظل الى ما قبل وفاته بيوم واحد وقاد الذهن قوى الذاكرة . وكان يحب المرح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا .

ويصف الزيات الزهاوى . وقد عاش معه فى العراق أعوام ٢٠ و ٣١ و ١٩٢٢ وكان صديقه الوفى . « لم تكذ تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخا فى حدود الثمانين قد انخرع مقنه وثقلت رجله ورعشت يده فهو لا يحمل بعضه بعضا الا بجهد والزهاوى ديدنه ان ينكلم كالبديل خاصته ان يغرد . . فهو فى مجلس الصدقة منك أو منك . وفى مجلس الادب محاضر أو شاعر وفى مجلس الانس مفدكه أو محدث » .

كما صور الزيات منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة وهو جالس على الدكة الخشبية ينشد الابيات الرائعة أو يرسل النكتة الباردة أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابة وتهفوة ساذجة . . ويده المرتعشة لا تنفك تعبت بسبحته الصغيرة أو تصعد وتهبط سيمكارته المراقية .

(١) رساقل الزهاوى : الكتب المصرى . يناير ١٩٤٧

(٢) سليم طه التكرينى . مجلة الكتاب . يونيه ١٩٤٩

كما وصف مغره في (الصابونية) وكيف كان يحدثه أنه
قضى الليل سهرا يقرأ .. وذا هذا نظم .. القصص والمجلات
منتشرة على سريريه وعلى مقعده .. المسموعات عدسوسة تحت
مخداته أو في ثيابه ..

يقول للزيات : أنظر كيف اذيب عمري في شعوري .. والامة
تقدفني بالبهتان .. والى حكومة تخرجني من مجلس لاعيان ..
والملك يستكثر على أن أكون شاعر لبلاط ..

.. ثم لا يلعب أن يقول : سأذهب وستبقى شعوري دعبرة
عن شعوري ناطقة بالآلامى فهي دموع ذرفت على الطرس وهى
خليقة أن تبعث من عيون قارئى دعة هى كن جزائى عن نظمها

شعره

اشتغل الزهاوى بالنثر والشعر ولكنه برز فى الشعر وعرف به وأطلق عليه لقب (الشاعر الفيلسوف) وقد بدأ حياته كاتبا ولكنه تفرغ للشعر بعد قليل واقتصر عليه . وان كانت محاولاته الاولى فى الشعر بدأت باكرة وساذجة . . يقول الزيات : لم يعرف الشعر الا بعد أن علت به السن . ويقول فى رسائله الى محمد أحمد عبش (١) : ان والده كان شاعرا فى الفارسية والعربية معا وان كان مقلا فيهما . . ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدع فى حاجة بازا ولا أسدا
الله ربك لا تشرك به أحدا

يريد بالباز عبد القادر الجيل . وبالاسد عليا بن أبى طالب كما كان يلقبهما به الجمهور فى العراق . ويقول : وأتذكر أنه - أى والده - كان فى طفولتى يعدنى يدرهم اذا نظمت شطرا واحدا من الشعر موزونا . وان لم يكن له معنى . وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جزل

والدى . اما جذلى انا فكان فى العلوى التى كنت شغرىها
بذلك الدرهم .

وقد تناول الزهاوى فى شعره السياسة والاجتماع والفن
والعلم والفلسفة .

أصدر عدة دواوين : الكلم المنظوم بيروت ١٩٠٨ . ديوان
الزهاوى : القاهرة ١٩٢٤ ، رباعيات الزهاوى : بيروت ١٩٣٣
اللباب : بغداد ١٩٢٨ ، الاوشل : بغداد ١٩٣٤ ، الثمالة :
بغداد ١٩٣٩ ، ترجمة رباعيات الخيام من الفارسية بغداد ١٩٢٨
وله ديوان نزعات الشيطان مجموعه من القصائد تم نشر
بعد فى المجلات والجرائد .

يقول الزهاوى : وسوف تنشر بعد موتى لانها لم تدم آراء
المتعصبين وتثيرهم على اثاره لا أحمد عقباها .

وقصيدة : ثورة فى الجحيم . . وعدد أبياتها ٤٣٣ بيتا
ونشرت فى مجلة الدهور فى العام الماضى . . وكانت تصدر فى
بيروت . يقول الزهاوى (١) وقد قامت حولها ضجة كبيرة .
وقد سبني بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبة
الجمعة . ونفذت بعد قليل من الزمن نسخها .

يقول الزيات : نظم فى أعقاب عمره قصيدة « ثورة فى
الجحيم » فلما كلمه الملك فيصل بشأنها قال : عجزت عن
اضرام الثورة فى الارض فأضرمتها فى السماء .

وقال الزهاوى فى رسائله : أن أكثر شعري الذى نظمته

(١) رسائل الزهاوى ديسمبر ١٩٤٦ الكاتب المصرى

قبل الدستور العثماني نشر في ديوانى الاول الكلم المنظوم (١)
 كما كتب عليه هذه العبارة « نظمه ونشر أكثرها ابانها بامضاء
 رمزى في أشهر جرائد مصر يوم كان الاستبداد شديدا » .
 وقد أوضح الزهاوى منهاجه الشعرى في مقدمة ديوان
 الزهاوى الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٢٤ : قال فى مقتطفات
 من هذه المقدمة :

الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش فى نفسه
 بأوزان موسيقية فيهب به المسامع .. ولا أرى للشعر قواعد
 بل هو فوق القواعد .. ولا يتقيد بالسلاسل والأغلال ..
 وهو أشبه بالاحياء فى اتباعه سنة النشوء والارتقاء .. يتجدد
 بحسب الزمان ويرتقى من الأدنى الى الأعلى .. وأنزع أن
 أمشى بشعرى فى سبيل الحياه الطبيعىة متجنباً المبالغات
 وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التى ورثها الابناء عن
 الاباء فيقول ما يشعر به .. ولا يشعر به اباؤه .

وما زلت فى جو من الفكر طائرا

ومن عادتي أن لا أطير مع السرب

ولا أرى مانعا من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من
 القصيدة .. عند الانتقال من فصل الى آخر .. كما فعلت

(١) طبع فى المطبعة الاعليه ببيروت وآخر قصائده مؤرخة

بغداد فى ٧ أغسطس ١٩٣٢ هـ

فى عدة فصائد ، لا دفعاً لبل السامع من سماع ثفاية الواحدة
فى كل بيت ٠٠ بل اراحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها .
واجيز للشاعر أن يسطم على أى وزن شاء سواء كان من أوزان
الخليل أو من غيرها . والشاعر الحر شجاع لا يهاب فى الصديق
لومة اللائمين ، الا اذا أحس بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب .
ونزاع الى التجديد . ينور على النظام . ويتمرد على السلطان
الكاذب ٠٠ يريد كل يوم أن يمزق عن العادات . ويمزق
أطمارها البالية كالقراصة التى تخنع لبريقها لبرز فى نوب
أجمل محبر بألوان السماء .

٢ - الجديد ٠٠ الجديد ٠٠ هو أحسن ما تنزع اليه النفس
الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما النظر .
سئمت كل قديم عرفته فى حياتى

ان كان عندك شىء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربى شعراء الغرب فى
شعورهم ٠٠ فان لكل أمة شعوراً خاصاً بها لا تحس به أمة
أخرى .

لا أقول أن يحمى الشاعر العربى على ما هو عليه الشعر
اليوم ٠٠ بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمة فى سبيله
ولا يسوغ للشاعر العربى مخالفة قواعد اللغة . وللشاعر
الفحل أن يولد فى اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يات بها
من جاء قبله .

٣ - وجدت الذين يمارسون الادب ثلاثة

الاكثر عدداً من لا يستحسن من الشعر الا ما ألفه من

من القديم وانتقل اليه بالوراثة من العصور الماضية ..
والشعراء المسايرون للجمهور ينالون حظوة منهم

♦ المتشرب مخه من الادب الغربى لا ينزع الى الشعر العربى
الا على نسق مايقول شعراء الغرب . ومثل هذا قد خرج من
فسيحة قومه واندمج فى غيرهم .

♦ قليل يسير مع رقى العلم جنباً الى جنب . ويستحب
لشعر خلوا من المبالغت منطبقاً على الطبيعة مع المحافظة على
لشعور العربى الذى هو قوام شخصيته . والاخلق الا ينتظر
لذى له نزعة التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله الا اذا
ان الجمهور منحطاً قد تعود القديم .. والمشاعر الذى يساير
معور الناس فيما ينظم ينال اقبالهم على شعره مادام الشعب
امدا . أما اذا تقدم الشعب ، فان شعره يموت ويأخذ مكانه
شاعر الذى يتجدد مع جيله ١٠٠ هـ

وقوام رأى الزهاوى أن هدف الشعر عنده هو التجديد ..
نفع المشاعر الى الحرية الفكرية والاصلاح . وحمل الجماهير
الانتقال من الجمود الى الحياة .

وقد كان الزهاوى شاعراً له هدف ورسالة وغاية يحصل
عمدة البحث فى حدود قوله : تمزيق العادات البالية دون أن
نشم غضب الجماهير أو هجائهم .. بل انه يرى أن الجمهور
يكس الشعراء المجدد الا بعد أن يموت ويأخذ مكانه بين الشعراء
ل: (٦٦) غنمت لانداء وطمح لانداء اية ساعظهم .. فلما

٦٦ مقدمة ديوان الزهاوى ١٩٢٤

فتنحوا عيونهم شموعوني ، ثم غنيت وخذوا يظفرون ابي شذرا
ثم حنيت وبنسوا سي ثم حملوا وبقي فيهم من يسلم . وحيت
وساغني الى ان يسكنني الموت ، وسوف نبقي للمعاني مجبره من
شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهاد ، فهي دموع
درستها يرعني على الطرس رصنه بلامى . . وهي حقيقه بان
تدرف من عيون فاريتها دمه هي دل جزائي من نصها .

ويرى الزهاوى ان شاعر الاجيال لا يموت شعره لانه يبنيه
على الحقائق الخالدة . . وهو في الغالب يسبق جيله . ولا اراه
مستفيدا من المستقبل الذي يجمع امله على اكباره لانه يكون
يومئذ تحت اطباق الثرى بينما لا يسمع هتاف الهاتفين له . .
والزهاوى في هذه العبارة يعنى نفسه . ويرى انه قد سبق
جيله وانه لم يلق الجزاء من اهل زمنه . ولم يستهدف لزهاوى
من شعره كسبا او نفاقا قال :

شعري ما أردت ان أكسب به مالا . . او اتزلف على احد .
فما رثيت الا من كان صديقي . ولا حمدت لا من ظننت فيه
خيرا للبلاد . وربما خاب ظني في بعضهم فكففت .

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن الزهاوى جرى مجرى
القدماء في المدح والرثاء والهجاء . وهو في هذا مجدد بالمعاني .
مقلد بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم .

ويصور الزيات الزهاوى الشاعر في قوله : كان فكره أقوى
من خياله وأسمى من عاطفته وهو من شعراء الفكرة له البصيرة
النافذة . وليس له الاذن التي (تموسق) الموسيقى . . ولا
القرينة التي تصنع . . فاللفظ قد لا يختار . . والوزن قد

لا يتسنى والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية لجريته
تتج بين الابواب المتخادلة عجيج الامواج المزبدة بين الشواطىء
المنهارة .. ويرى الزيات أن الزهاوى عقلية أفافة وميسرة
دفاقة وطبيعة ساخرة .. وهذا التوثب الحماسى هو الذى جعله
يؤثر النظم فى تقييد خواطره .. وهذه الحماسة قد نبت
أحيانا عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها .. فيذهب الشاعر
ولا يبقى الفيلسوف .

ويقول الزهاوى فى بعض رسائله أن شاعريته بدأت وجرى
فى سن الخامسة عشرة .. ومن أوائل شعره :

أما آن أن نأبى على الوطن العارا

فتركب أخطارا ونقضى أوطارا

وقد ترجم الزهاوى شعرا عن توماس هاردى ونشره فى

..

الهلal عام ١٩٢٩

وتعد قصيدة « ثورة فى الجحيم » من أهم شعر الزهاوى
فهى مؤلفة من ٤٣٣ بيتا فى قافية واحدة نشرها عام ١٩٢٩
فأحدثت ضجة وقد سماير فيها (رسالة الغفران) وتأثر بها تأثرا
واضحا فى الفكرة والمشاهد . كما تأثر بدائتى فى الكوميديا
الالهية . وأخذ من (هوجو) العبارات التى ساقها على السنة
الملاك الذى اتخذ رمز البومة .. وخلاصة ملحمته أن الشاعر
يصوت ويودع فى القبر فيظهر منكر ونكير ، كما الحساب ..
فيجرى بينه وبينهما حوار حول العقيدة والحياة والدين
والايمان وتفاصيل العبادات والفروض الدينية . وقد عرض
لهذا كله فى سخرية وتهكم شديدين .

وهو يؤمن بنفسه كشاعر ومجدد وإن لم يكن زعيماً :
اننى منذ كنت أشدو بشعرى
كان يوحى الى بالتجديد
أنا لا أدعى الزعامة فيه
غير أنى أثبت فيه وجـودى
حبذا الليل والنهار بعينى
اننى مغمـرم بكل جديد
وجديد القريض قرب معانيه
وبعد له عن التعقيد
ولقد أحب الزهاوى وقال شعرا عاطفيا رائعا :
نظرت اليها وهى بيضاء تبهج
تجد به ماء الصدا يتوهم
مشيت ومشى قلبى المشيم خلفها
يقبل آثار الخطى حيث تنهج
لها وهى أدرى العالمين بحالتى
هوى فى فؤادى ناره تشـاج
أريد اذا قابلتها لا ينها
غرامى بها لكننى أتـلاج
تمنيت ياسلمى وهل يتفـع المنى
لو أن حياتى فى حبـاتك تـمزج

الزهاوى المجدد

أجمع مؤرخو الزهاوى على أنه شاعر مجدد وأنه جدد فى أربعة أمور :

• مكافحة العادات والتقاليد البالية والدعوة الى التحرر والتجديد والاصلاح الاجتماعى .

• مناصرة المرأة والدفاع عن حقوقها
• ادخال النظريات العلمية ، والافكار الفلسفة المستحدثة فى الشعر .

• التحرر من قيود اللغة واستعمال المصطلحات العلمية ومزاولة الشعر المرسل

وقد ثار الزهاوى على القديم جملة .. فى الفكر والسياسة والاجتماع .. وثار على الحكام المستبدين والطغاة الظالمين . ونقد سلاطين آل عثمان وولاتهم مما أدى الى سجنه ونفيه ومحاربتة فى رزقه .

قال فى السلطان عبد الحميد الثانى وقد دنى بسببها من الاستانة عام ١٨٩٧

لقد عيشت بالشعب أطماع ظالم
 يعمل من جورته ما يحسد
 فيا ويح قوم فوضوا أمر أنفسهم
 الى ملك عن فعله ليس يسأل
 الى ذى اختيار فى الحكومة مطلق
 اذا شاء لم يفعل وان شاء يفعل

وما أعتقد أن شاعرا فى الشرق العربى فى هذه الفترة قاوم
 السلطان هذه المقاومة أو عرض الحاكم الظالم على هذا النحو
 وقد كان الزهاوى حفيّا بنظريات الكون والوجود والجاذبية
 والنسبية والتطور والفلك والكهرباء • وضرب فيها بسهم وافر
 من منظومه ومنشوره •

وقد درس الزهاوى نظريات داروين فى التطور ونيوتن
 فى الجاذبية والنسبية وضمن شعره هذه الآراء •
 وهو أول شعراء العرب الذين عتوا بهذه الموضوعات • بل هو
 أول من أدخل المصطلحات الحديثة فى الشعر العربى فترددت
 فى أبياته كلمات لاثير والاكثرون والبروتون والكهرباء •
 وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما •

وقد قال ناقدوه انه ما أن يقرأ حكمة أو نظرية أو رأى
 مستحدث حتى يعمد الى قلعه فيدخله فى شعره • وقالوا
 ايضا انه ليس للزهاوى رأى جديد فى كل ما قاله من شعره •
 وانما كان ترديدا لما كان يقال فى صحف مصر من أحاديث
 سيلايه موسى وطه حسين وهيكلى وغيرهم من المجددين •

ويعصف الزيات تهالك الزهاوى على التجديد على أنه خوف
عاصف من الاتهام بالجمود . كان الزهاوى كشوقى (١) حريصاً
على متابعة العصر ومسيرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما
طبع من يطلب التجدد . . وحس مرهف يأنف التخلف . .
ويزيد الزهاوى أن الفجر يزهاه وأن التيه يذهب به . . فيحب
الثناء ويبغض النقد . وهو لفرقه من صفه القدم يسبق الكتاب
الى التجديد . ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى الى التطرف
ولطمعه فى نباهة الذكر يجرى مبول الخاصة . . ويعارض
هوى العامة . . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد
بمهاجمة أهل الحكم . . وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين
وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الامة .

ولعلنا نضيف الى هذا أن الزهاوى قد جدد الشعر بادخال
عنصر الفلسفة اليه حتى وصف بأن الفكرة الفلسفية هي المادة
الاصيلة فى شعره .

ويعزو بعض مؤرخيه نزعة التجديد فيه والدعوة الى
الحرية (٢) الى ما تذوقه من نسمات الحرية فى الفترة التى
أمضاها فى الاستانة . . حيث عاش فى جو تركي الفتنة
والدعوة الى الدستور وجهاد مدحت باشا فى سبيله . . ولما
تتلقفه من نسمات الحرية عن طريق الصحافة العربية فى المهجر
ومصر ولبنان .

(١) مجلد الرسالة ١٩٣٧

(٢) سليم طه التكرينى : الكتاب يونيه ١٩٤٩

ولقد كان الزهاوى (١) يحب سمعه ويعبر به زيارته
وخليله ويرى فيه عزاء عند الملل والمسيلة عندما تعسره
الهموم .

يا شعر انك أنت صوت صميرى
بيديك حزنى درد وسرورى
يا شعر أنت بكائى يوم كآبتى
وتبسمى يا شعر يوم حبهورى
أنا أنت يا شعرى وأنت أنا فمن
ينراك يقرأ سيرنى وشعورى

ولقد ظل الزهاوى يكرر آرائه فى كل شعره ، ويصر على
رأى قاله بالرغم من خصومة الناس له . . وهو فى هذا يجيد
اجادة ممتازة فى بعض الاحيان ويكرر نفسه ويستطرد ويبدو
مبلا وضعيفا فى احيان أخرى .

وقد كره اللغة التقليدية والمحسنة البدعية والنظمية . .
ولم يقف شأن الشعراء المعصرين له عند المعانى العامة بل خاص
معركة السياسة والحياة والمجتمع فى قوة

هذا وقد سببت نزعة الزهاوى التجديديه له كثيرا من
المتاعب والخصومات ولم يحتمل أحد وطنه جرأة آرائه

(١) محاضرات ناصر الحننى عن الزهاوى .

واندفاعه فردوا له الصاع صاعين

يا نفس قد سبوك حين نصحتهم

هذا جزاء الناصحين فذوقى

قالوا اطردوا الزنديق من اوطانكم

ماذا يخاف القوم من زنديق

قلوا اقتلوه فانما هو مارق

ماذا يضر المؤمنين مروق

انا لست زنديقا ولا انا مارق

حتى يحل لطفركم تمزيقي

والزهاوى الشاعر المجدد له فى الحب شعر عميق المبني

جديد فى العرض تتمثل فيه طبيعته الحريصة على أن يفول

ما لم يقله الشعراء من قبله :

أول الحب فى القلوب شرارة

تختفى تارة وتظهر تارة

ثم يرقى حتى يكون سراجا

لذويه فيه هدى وانارة

ثم يرقى حتى يكون مع الايما

م نارا حمراء ذات حرارة

ثم يرقى حتى يكون أتونا

بحراراته تذوب الحجارة

ثم يرقى حتى يكون حريقا

فيه هلك لاهله وخسارة

ثم يرقى حتى يمتلئ بركانا
 يرى الناس من بعيد ناره
 ثم يرقى حتى يكون جحيما
 عن تفصيلها تضيق العبارة
 ومن آيات تحديده انه نقل العلم والطبيعة والفلك والكائنات
 وتعليل الجاذبية الى الشعر . يقول في قصيدته « سياحة
 العقل » .

لا تقبل الاجرام عدا
 كلا ولا الابعاد حدا
 العقل يرجع خائبا
 فيها وان لم يال جهدا
 مسترشدا بعمله
 فيها اذا ما ضل يهدي
 والعقل يعلم من سياحته التي اولته مجدا
 ان المجرة لم تكن الا
 عوالم ففن عدا
 والسحب فيها أنجم
 من الشمسوس بعدن جدا
 متحركات في السماء
 تغال ان لهن قصدا
 متجاذبات لو تخلف
 واحد عنها لاودي

وهو يعاود الحديث عن شعره في عديد من قصائده ويطلبك
بالانصاف

ما الشعر الاشعورى جئت أعرضه

وانقده نقدا شريفا غير ذى خلق

الشعر ما عاش دهره بعد فائه

وسار يجرى على الافسواه كالمثل

والشعر ما اهتز منه روح سامعه

كمن تكهرب من سلك على غفل

وخلاصة رأيه فى الشعر الجديد أن يتحرر بجميع أغراضه

من أسر التقاليد الجامدة . . وان الاوزان بالنظريات الشئ

وضعها الخليل ليست ملزمة وان التجديد يجب أن يشمل

القوالب والمضمون .

الزهاوى النادر

أريد فى هذا الفصل أن أعرض للزهاوى المكتوب . . فقد خلف عددا من الابحث والدراسات النسوبة مما يدعوننا أن نحلل معالم كتاباته . ومن هذه المؤلفات رسالة الكائنات (١) فى الفلسفة أبدى فيها رأيه الحر فى المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية ورسالة فى سباق الخيل (٢) أودعها تجاربه فى وكس الخيل . ورسالة فى الخط الجديد (٣) وقال عنها: هذا الخط لا يشبه الخط العربى ولا الحروف اللاتينية ويقدر أن يتعلمه التلميذ فى أسبوع . وهو جميل ويكتب مفصلا من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . ويطبع مقطعا . . وفيه تسهيل للطباعة . . فان كل حرف منه اذا قلب كان حرفا آخر من الحروف مقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما فى ذلك من الاقتصاد . ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطا عاما لجميع اللغات . ودروس الفلسفة (٤) التى كان القاهما على تلاميذه فى

١ - طبعتها المقتطف بالقاهرة ١٨٩٦

٢ - طبعتها الهلال

٣ - نشرها المقتطف

٤ - القاهرة ١٨٩٤

جامعه الاستعانة ورسالة الفجر الصادق في الرد على الوهابية
وقد طبع في مصر قبل الدستور العثماني ورسالة الجاذبية (١)
وتعليقها ورسالة لعبة الداما وتحتوى على ١٥٠٠ لعبة منها
٥٠٠ لعبة لاصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاته (وهذه لم تطبع)
وكتاب تسهيل قواعد اللغة العربية ورسالة الجاذبية وتعليقها (٢)
وكتاب المجمل مما أرى (٣) .

وليس شك ان كل هذا المحصول الثرى الضخم يعطى
للزهاوى صفة الكاتب . وان لم يصل فيها الى درجة الشاعر
التي غلبت على حياته وفنه . ولعله مما يلاحظ أنه كان فى
شبابه يكتب النثر وان كل هذه المؤلفات أو أغلبها طبعت فى
الفترة الاولى من حياته وقبل أن يتفرغ للشعر تفرغ نهائيا .
يقول الزهاوى (٤) بنيت الادب على أنقاض عبد القادر
العمري والاخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين فلا
حواله فى الفاظهما ولا ابتكار فى معانيهما .

ويقول الزيات أن الزهاوى كان فى شبابه ينظر فى العلوم
الفلسفية الطبيعية وسبيله الى ذلك ما ترجم من المقالات
والكتب . . ولم يعرف من اللغات غير الفارسية والتركية
والكردية . . وانه ألف كتاب الكائنات فى الفلسفة . وكتاب

١ - طبعت ببغداد

٢ - بغداد ١٩١٠

٣ - مصر ١٩٢٤

٤ - رسائل الزهاوى - مجلة الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦

الجاذبية وتعليلها في الطبيعة وخالف به اقطاب العلم . ومن ذلك قوله : أين علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة وإنما هي دفعها لها بسبب ما تسعه من الالكترونات .

وقد عرض العقاد لهذه المسائل الفلسفية التي تناولها الزهاوى في كتبه في مقال له نشر في كتابه ساعات بين الكتب كان قد كتبه عام ١٩٢٧ وفيه يقول : (١) اننى أقر هذا الباحث الفاضل . وأعرف مستقلال فكره واستقامة منطقته وجراته في جهاده . وغبنه بين قومه فلا أحب أن أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالا لا يوائم ذلك التسويق ولا يناسب ماله عندى من القدر والرعاية .

أول كتاب قرأت للزهاوى كان كتاب الكائنات أو رسالة الكائنات لأنها عجلة مختصرة من لقطع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين سنة (أى عام ١٩٠٧) وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة . ومباحث الدين والفلسفة . فراقنى من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ . ووضوح التفكير . والجرأة على العقائد الموروثة .

وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء بأشعار ابن سينا ويزيد عليهما بالجلال والترتيب . ثم قرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اضطلاح واستقلال ونزعة الى الثقة والابتسكار . وكان آخر ما قرأت له رسالة المجلد مما أرى ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين الى حين .

١ - ساعات بين الكتب ص ١٩٧ وما بعدها .

.. واذا فرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها ولمست فى آرائه موطن التحليل والتعليل .. ولكنك تصل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا .. وتلقت الى البديهة فاذا هى محدودة فى أعماقها وأعلىها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الاغوار .. فهو يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار لا تنطبق فيها الاجفان . لا تتناجى فيها الاحلام وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا . ولكنها كذلك ليل وغيب لا تجدى فيها الكهرباء .

وهكذا يعارض العقاد آراء الزهاوى فى العلم . وهو ما كان موضع النقد عند كثير ممن أرخو للزهاوى أو كتبوا عنه . يقول سليم طه التكرينى المحامى ببغداد (١) لقد بلغ من هوسه بهذه العلوم أن راح يناقض البعض منها ويرد على أصحابها .. ولكن العقاد لا يلبث أن ينصفه فيقول : الاستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية عن طراز رفيع .. وأنه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجترأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعر . فمن ينشده فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه .. واقبال عليه فى هذا المجال .

والزهاوى الى هذا صاحب قلم وناثر ولغته قوية ممتازة .. وقد كتب فى الهلال (نوفمبر ١٧٢٦) تحت عنوان هل تدوم

بهضة الأتراك . . فقال : إن الرماد الذي تراكم في مكان الحريق الهائل لم يخل من جمرة إذا نفخ فيها المافخ تأججت من جديد فكانت قوة كبيرة تستطيع عمل شيء جليل . . وهكذا كان الأمر فإن الغازي مصطفى كمال نفخ في درع الأمة التركية من روحه . . تلك الروح الكبيرة . . وهو بمعزل عما كانت تكيده له الخلافة في دارها حتى أحيها ورأب صدعها وسترده بما جنده من فلل الجيش المدحور . . وهو لا يملك يومئذ لا عزمه ما احتلته اليونان من بلادها وكان الفوز بآهرا . . ويعطى هذا النموذج رقابة ذهن الزهاوى وجمال أسلوبه النثري .

ويمرّ اتجاه الزهاوى إلى الفلسفة وإلى ادماجها في شعره ونثره أنه كان مدرسا للفلسفة الإسلامية في الاستانة . هذا فضلا عن أنه بطبيعته فينسوف فيه حب للجدل والمناقشة . . وفي أسلوبه ذكر الأسباب والنتائج . . ولقد كانت لغته دائما أقرب إلى لغة العلم . وقد أحب مجسلة المقتطف لموضوعاتها العلمية . ومؤلفات فائديك في الفلك وكتب الدكتور ورثبات عن الفسيولوجيا والتشريح . كما أنه قرأ مترجما إلى التركية البؤساء لفكتسور هيجو . كما قرأ أناطول فرانس وشكسبير وجوته وتولستوى . وكان معجبا بشاعر الأتراك الكبير ناصق كمال .

ومما يتصل بعمل الزهاوى الناصر أنه عين في عهد الاحتلال رئيسا للجنة تعريب القوانين التركية فعرب ١٧ قانونا بين صغير وكبير .

الزهاوى والمرأة

من أبرز معالم حياة الزهاوى وشعره اشتراكه فى قضية المرأة ودعوته الى حريتها وتعليمها وسفورها . . وهو أول شاعر عربى يعطى هذه القضية قدرا ضخما من الاهتمام ويتكلم عنها بحرارة . ولم يسبق فى ذلك الا بقاسم أمين . ولقد بدا الزهاوى دعوته لتحرير المرأة منذ عام ١٩١٠ وقد تحمل فى سبيل ذلك مشقة كبرى وواجه هجوما صاخبا من معسكر الرجعيين والمتزمتين . فقد كان لدفاع (١) الزهاوى عن المرأة فى المجتمع العراقى وفعا أشد من وقع كتابات قاسم أمين فى مصر وأبعد منه أثرا . . فقد أنفق نصف قرن أو يزيد وهو يدافع عن المرأة ويوالى حملته بايمان وحرارة . وقد طالب الزهاوى بتعليمها وسفورها ومساواتها بالرجل فى بيئة كانت تسام فيها المرأة كما تسام الانعام . وقد نقد الحياة الزوجية فى البيئة العربية وهاجم الطرق الخسيسة التى يجرى الزواج بموجبها وآمن بأن الحجاب من أسباب تأخر المسلمين . . ومن جملة شعر الزهاوى يظهر انه عالج خمس قضايا للمرأة . . السفور ومكافحة تعدد الزوجات ونقد طريقة الزواج والدعوة

الى تعليمها ومشاركتها في الحياة العامة ومساواتها بالرجل
يقول :

انما المرأة والمرأ سواء في الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة
يرفع الشعب فريقان اثاث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيه يطير
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور
ليس ترقى الانساء في امة ما
لم تكن قد ترقى الامهات
آخر المسلمين عن أمم الارض
حجب تشقى به المسلمات
لابقى عفة الفتاة حجاب
بل يفىها تثقيفها والعلوم
مذبوا ارواح العذارى لتبقى
سالمات من العذارى الجسوم
اسفري فالحجاب يا ابنة فهد
هو داء في الاجتماع وخيم
انزعيه ومزقيه فقد انكره العصر ناهضاً والحلوم
اسفري فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
من بعدما انتظرت حقاً اباً
ثارت فمزقت الحجاب اباً

عسوية عرفت أخيرا
 كيف تنبذ ما أرابا
 كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
 وسيطلب التاريخ من ناس
 لها ظلموا حسابا
 سألت لها حرية منهم
 فما لقيت جوابا
 وليس من الدين الحجاب وانما
 وجعنا الى ما حكمه نتفهم
 فان كان نص فائل بوجوبه
 ولا نص فيه حسبا أنا أعلم
 نأوله حتى نوفق بينه
 وبين طريق العلم فهو المقدم
 ليس ترقى الأبناء في أمة ما
 لم تكن قد ترقى الأمهات
 أخر المسلمين عن أمم الأرض
 حجاب تشقى به المسلمات

وهذه النماذج منتقاه من شعره على مراحل وفترات مختلفة
 من حياته .

ويسجل الزهاوى فى بعض رسائله أثر قضية المرأة فى
 فيقول : وعزلت عن وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفعى

عن حقوق المرأة . . . وبني أدبى نظمت قصيدة امرأة الجندي
يوم لم يكن في بغداد شاعر يتحرف الشعر في اصلاح
المجتمع .

ويقول الزهاوي في موضع آخر من رسائله مصورا أثر
لمعنه في المرأة في ولاية ناظم كانت جسريدة المؤبد في مصر
قد نشرت في مقالة أذاع فيها عن حقوق المرأة فذاعت حول هذه
المقالة ضجة كبيرة وأخذ التعصبون يرغون ويزبدون يذموني
بالسب واللعن . وكان التعصب في بغداد يومئذ ذا صولة
فلم يسع الوالي غير عزلي من وظيفتي ارضاء للرأى العام .

كما أدى قيام القيامة ضد الزهاوي عليه الى لزوم دارة
خوفا من القتل بعد أن تعرض به دماء الشعب .

ولقد كان لدعوة الزهاوي أثرها فقد لغيت صدى ايجابيا
بالرغم من حملة خصومة عليه من أجلها . . . وفتحت الباب أمام
تعليم الفتاة في العراق .

فنون شعره

أصدر الزهوى ديوانه عام ١٩١٢ (طبعة خير الدين الزرني
بالمهرة) وقد ضم شعره من عام ١٢٠٧ - ١٢٤١ هجرية
(١٨٨٨-١٩٢٤) في خلال سبسته وثلاثين عاماً وقد كتب على
صدره هذه البيت

إذا الشعر لم يهرزك عند سماعه

فليس خليفاً أن يقال له شاعر

وقد ضم الديوان خمسة عشر باباً تعطي صورة التجديد
وحسن التنسيق عند الزهوى .

- ♦ الشبهات : في الغرام
- ♦ هواجس النفس : في مطالب فلاسفة
- ♦ الحديث شجون : في القصص
- ♦ الدم والنار : في الحروب
- ♦ المشاهد : في الوصف
- ♦ السموع الناطقة : في المراثي
- ♦ أبنيذ المجروح : في البث والشكاه
- ♦ القارعات : في البحث على التقدم
- ♦ الشعر والشعراء : في القرى والشاعر
- ♦ الليل والنهار : في الاجتماع

- وحى الضمير : فى الوطن
- المرأة : فى النساء
- قلق الصباح : فى الترحيب
- بقايا الشفق : فى مطالب نيتى
- الخطرات : متفرقة

وتعطى هذه الابواب صورة شعر الزهاوى كله بعد إصدار هذا الديوان وهو فى سن السنتين . وقد استطاع ان يضرب فى جميع مجالات الشعر وفنونه وأثره محبا ومسلحا جنديا رئيسيا وراثيا ووطنيا .

وقد ظل الزهاوى فى شعره نابض بالحياة حتى بلغ سن السبعين . . . وشارك فى معاربه الظلم والاستبداد والرغبة فى رقى الشرق ومقاومة الخرافات التى دخت الى الاسلام ومقاومة الخرافات التى دخلت الى الاسلام ومقاومة الحجاب وسيلطان رجال الدين وان كان كل ما قاله لم يكن جديدا . . . الا انه سبق زمنه بمائة عام . . . ويقدم الشعراء جميعا فى هذا المجال . وفى الزهاوى روح من دعوات جمال الدين الافغانى ومحمد عبده للاصلاح السياسى والدينى وفيه من الكواكب حملته على الاستبداد .

والزهاوى يرى كل قصيدة هى القصيدة الاولى والاخيرة فلا يبالي أن يكرر فيها ما قال فى قصائده أخرى ويقول فى مقدمة ديوانه : ربما عرف المطالع شعري حاله بلادى السياسية ودرجتها من الرقى فى السنين التى عشت

فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من اسرجم الطويلة

واعذب شعر الزهاوى دعوة الى الحرية والتجديد وبورقة
دائمه على الجمود والتفانيد واليهود الفريه والاجتماعيه فقد
كان يؤمن بأن الشرق لا يتم له التقدم الا اذا تحرر من عبثه
القيود التي غلت تفكير ابنائه

وبيتاه هذين يرمزان الى مذهبه واتجاهه

سئمت لل قديم عرفته في حياتي

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

غير اننا اذا ذهبنا نقارن شعر الزهاوى في ديوانه هذا مع
ديوانه الاول الذي أصدره عام ١٩٠٧ أى قبله بأكثر من خمسة
عشر عاما وهو الكلم المنظوم نجد فارقا بعيدا . فقد كان ديوانه
الاول مجموعة من القصائد التي قالها أيام الاستبداد ونشرها
في الصحف المصرية بتوقيعات رمزية خوفا من السجن .
وكان الزهاوى راضيا عن الاتراك والسلطان في أول الامر
ثم تغير رأيه عندما بدأ الاحرار الاتراك دعواهم فأصبح موضع
رقابة شديدة مما حمله الى العودة الى العراق مخفورا .

ولما راتب الغدر في القوم شيمه

وان مجال الظلم فيها يوسع

وان كلام الحق ينبد جانب

وان أراجيف الوشاية تسرع

خشيت على نفسي فأزمت رجعه

الى بلدى عن قبيل انى أصرع

وهل راحه فى بلدة نصف اهليها
على نصفه الثانى عيسون تطلع
تراقب افعالى وكل عشمسية
الى «يلدزه عنى التفساير ترفع
ويقول الزهاوى فى المقارنة بين الشرق والغرب :
الشرق ما زال يحبو وهو مفتض
والغرب يركض ولها وهو يفتان
والغرب ابوه بالعلم قد سعدوا
والشرق اعملوه فى جهل كما كانوا

الزهاوى شاعر القومية العربية

الزهاوى «شاعر الحرية» ما فى ذلك شك ولا ريب . لقد عاش للحرية حياته يوما يوما وساعة ساعة . . . كان كل شعره وقودا لهذه الشعلة المقدسة . شعلة الحرية . فقد كان يحب الحرية حبا يفوق كل حب ويدعو اليها ويطالب بها ويفنى لها . وهو اذا حرم منها ضاق بها وظل يصرخ صرخاته القوية الجيزة .

والزهاوى شاعر القومية العربية غير مدافع . . حمل لواحقا ودعا اليه منذ خمسين عاما وضع بالدعاء .

ولقد عاش الزهاوى فى عصر عبد الحميد . . وعاداه . . وأرسل اليه قصيدة صائحا بدعوة الحرية فى وجه الرجل المستبد الذى كانت الناس تخشاه وتحمل فى سبيل صبيحته كل أذى وسجن ونفى وإخراج . . ولكنه ظل مؤمنا بدعوته . . ومضى مواصلا ايها . . فاذا ضاقت به العراق عن أن يقول فيها كلمة الحرية أرسلها بالبريد الى مصر لتتشر فى صحفها رمضاء مستغار .

واذا قلبنا ديوانه وجدنا شعر الحرية هو أغلب شعره وأعمه ، وهو أصدق شعره وأشدّه أثرا فى النفس
أبناء دجلة والفرات نيام
عن حقها وتسرها الاحلام

وإذا الحقائق لم نجد في أمه
 سنداً تقوم مقامها الأوهام
 إن العراق به يعيش لشقوة
 شعب يسام الدل ثم يسام
 القوة حتى صار فيهم طابعا
 من طول ماضفهم الأيام
 لو كلفوا مشيا على رأسهم
 لمشوا كان رؤوسهم أقدام
 فهو يدعو أهل العراق الامجاد في صيحة جسارة قوية ان
 مهبوا ولا تحتلوا الدل ولا ترضوا به .

لا ينبغي استقلاله شعب له لم يستعدا
 شعب اذا لم تستبد به حكومته استبدنا
 شعب يلم بشره اذا ألم فلا مردا
 شعب يفلن الجدد هزلا كله والهزل جدا
 شعب يعرض للطام بكل يوم منه خندا

ولكن الشعب كان قوى الشكيمة لم يفقر للاستبداد ذله
 فنار ثورة حاميه حرقت على الدخيل الاخضر واليابس
 وهو لا يدعو بغداد وحدها الى الحرية ولكنه يدعو الشرق
 كله .

عظيم على الافكار في عصرنا الحجر
 اما كل انسانه بآرائه حمر

وهل فله الشعب المريد انطلاقة
من الاسر ان الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريريه من اسساره
اذا لم يكن فى راسه حرر الفكر
واى رقى فى الحياة ميسر
لقوم يقول الحق ما أن لهم جهر

يرومون للافسواه كما يبعثهم
وذاك لعمري ثم ذاك هو النكر
اذا الشرق لم ينفع من القطر غله
باكباده المحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهاره
أما بعد ليل الشرق محلولا فجر
ولا بد من أخذ العروبة حقها
وان حالت الاقدار أو خذل الدهر

وهو فى هذا يدعو الى القومية العربية مؤمنا بها
وكلما جاءت المناسبات ذكر العراق شعبه المكبل باثقيود
ودعا الى الحرية فى قوة

عيسى بن الم على ياس بمملكة
وليس فيه لجرح سدا تضاميد
حيث المنخيل بسعيد من تولفته
وعن مواطنه المحر تشريد

الحق يوطئ بلادهم مستحقا
 وما هنالك يحمي الحق صنيده
 نالت مطالبها الاقوام فاطبسة
 ومطلب العرب المهضوم مردود
 وما بكل بلاد العرب من جذل
 ولا بكل بلاد العرب مسمود
 وهكذا ينكشف نرهاوي في كل شعره على انه ليس شاعر
 الحرية فحسب ولكنه شاعر القومية العربية كما يؤمن بها
 العرب ويعملون لها .
 وهو محب للوطن . صديق الحب . يتره هوانه و يواجه
 حكامه بالنقد

اعديت يوطئ نسات بارضه
 وخرجت فيه يافع و غلام
 بالذل لا ارضى وان سددت به
 روجي وارضى بالخصام زواما
 حي الذين اذا الهوان اصابهم
 اتخذوا الالباء من الهوان عصما
 يا قومنا لا نفع في احلامكم
 فخذوا الابر من الهوان عصما
 يا قومنا لا نفع في احلامكم
 فخذوا الحقائق وابذوا الاحلام
 انى لا رباً ان اكون محبة
 في الحادثات ولا اكون حسما

والقد يريد الظالمون لنفسهم

بالظلم من شر يلم سـلاما

ولست اعتقد أن ادب القوة يمكن أن يؤدي بأقوى مما آداه
الزهاوى فى قصائده الحماسية النصارية لتي دعا فيها الى
لحرية ..

فهو حامل مشعل الحقائق يدعو الى نبذ الأحلام والاهام .
وهو داخ دائما وأبدا الى الالباء من الهوان والى نبذ الرضعا
والتسليم والى قبول الحمام والموت دون الاوطان وحرقاتها
وكراماتها .

وهو فى آبان الحكم العثماني يقذف الدولة العثمانية بأسواط
لمثبه من شعره يسق بها ظلمت الليل البهيم الذى يعيش فيه
العرب

وما هي الا دولة مستعبدة

تسوس بما يقضى هواها وتعمل

فترفع بالاعزاز من كن جاهلا

وتخفض بالاذلال من كان يعقل

الا انما بغداد قد أصبحت بهم

يهددها داء من الجهل معضل

وقد عبت بالشعب اطماع ظالم

يحملة من جود ما يحمّل

فتعسا لقوم فوضوا امر أنفسهم

الى ملك عن فعله ليس يسأل

فيا ملكا في ظلمه ظل مسرعا
فلا الامن موفور ولا هو يعدل
ولعلها اول صيحة في الشعر العربي لمواجهة ظلم عبدالحميد
يرتبط فيها الزموى بصاحبه الكواكبي صاحب كتاب مصارع
الاستبداد .

نحن في غفلة نيام وعنا
نائبات الزمان غير نيام
نحن في دولة تدارتها الله
تبيع المحطور للحكام
وعدوها بالاصلاح جم ولكن
لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص
واحد ان نعيش كالانعام
ايها الظالم اغتصبت حقوقا
قد حبساها الانام رب الانام
وما اظن ان السلطان عبد الحميد واجه من الهجوم مثل
ما واجهه به الزهاوى شاعر الحرية والقومية العربية
قد اسمعتك انينها الاوطان
بضعيف صوت ملؤها الاشجان
ممت اليك يد الشكاة لانها
قد عاث فيها الظلم والعدوان
ادرك بها الضعفاء واستعجل فقد
عز النصير وقلع الاعسوان

ان كنت تضمرها وتحمل حوصصها
 عن غاصب فلفس أدنى الابان
 أدرك بنصر أمر قومك أنهم
 ظلموا فريع الشيب والشبان
 وهو ما يزال يحمل على الظلم حملات متعددة . . لا يتوقف
 ولا يتراجع . . وإنما يمضى بفلمه النصارى يعدد اثم الظلم
 وشره ويدعو الى العدل الذى هو الحرية
 خفف من الظلم ابفاء وتهوين
 فالظلم يقتلنا والعدل يحيينا
 يا مالك الامر ان الناس قد ضجروا
 عائل برفق رعائك المساكين
 لهسوت عنا بما أوتيت من دعة
 فأبيض ليلك واسودت ليالينا
 ليست طريقك محمودا نغبتها
 فأبدأ اذا شئت فى الاحوال نحسين
 رعو من دعاة السلام . يكره الحرب وينهر منها
 الحرب للمتهورين
 هى الطريق الأزعر
 الحرب لولا أن تحس ضرورة لا تشهر
 تضنى الذى هو ظافسر
 وتذل من لا يظفر
 فى الحرب لا تلقى من الفتية من لا يخسر
 فاذا أهل الدستور الجديدة عام ١٨٠٨ استقبله الزعاعوى

فرحاً به مضيق موقوف حياة جديدة للعرب وباباً جديداً للحرية

البرق أهدى لنا بشرى بها أمنت

أرواحنا بعد طول الخوف والرهيب

بشرى كما تبتغي الآمال صادقة

أحبها الناس من قاصي ومفترب

صاحت لفرحة هذا العيد أفئدة

كانت تن من الآراء والذروب

صاحت سرورا وكانت قبل فرحتها

ندعو على كربها بالويل والحرب

ويمضي الزهاوى داعياً إلى اسحرية مؤمنا بها لا يخلت عن

الركب فإذا بدا العرب يتحررون من نير الشرك وحشي الشرك

يكيدون للعرب رجههم بالحقائق

وما فئة الاصلاح الا كـباري

يعزل بالقطر الذي ليس ينزل

لهم اثر للجـور في كل بلدة

يمثل في أفعـالهم ما يمثل

إذا نزلوا أرضاً نقـا فم خطبها

كأنهم فيها المـبـلا الموكل

وتبلغ الزهاوى قمة إيمانه بالحرية في قصيده الذئبة

يرثي بها من شفقهم أحمد جمال باشا السفاح أوالى شركى على

سوريا من أحرار العرب

على كل عود صـاحـب وخليـل

ونى كل بيت رنة حـرـيـل

وفي كل عين عبرة مهـراقـة
وفي كل قلب حسرة وغليـسـل
عـسـلاها وما غير الفتوة سلم
« شباب نسامي للعلـى وكهـول »
كان وجوه القوم فرق جذوعهم
بحوم سما، فى الصـبـاح أقول
كان الجذوع القائمة منابر
علت خطباء عودهن تقـول
لقد ركبـوا كور المطايا يحـثـهم
الى الموت من وادى الحياة رحيل

اجالوا بهاتيك المشـانق نظرة
ينوح عليها اليأس حين تجـول
وبالناس ان حفوا بهم يخفرونهم
وقوفا وفي ايدى الوقوف نصـول
دنوا فرقوها واحدا بعد واحد
وقالوا وجيزا ليس فيه فضـول
فمن سابق كيلا يقال محـاذـر
ومستعجل كيلا يقال كسـول
ولله ما كانوا يحسـون من اذى
اذ الارض تنسأى تحتهم وتزول
واذا قربوا منها واذا صعدوا بها
واذا مس هاتيك الرقاب حـبـول

وما هي إلا رجفة عتري العتي
مفجأة والرأس منه يميل
مشوا في سبيل الحق يحدوهم الردي
وللحق بين الصالحين سبيل
ستبكي على تلك الوجوه منازل
وتبكي ربوع الصلي وطلول
وأعظم بخطب فيه للمجد شقوة
وفي جسد العلياء منه نحول
سرت روحهم تطوى السماء لربها
وما غير ضوء الفرقدين دليـل
ولله عيدان من الليل أثمرت رجالا
عليهم هبة وقبول
هوت أهم ماذا بهم يوم صلبوا
على غير ذنب كي يقال دخـلوا
سوى أنهم قد طالبوا لبلادهم
بأمر اليهم فخرو سـيـؤول
ونادوا باصلاح يكون الى العلي
وللتنجح والعمران فيه وصـول
فما رد عنهم عنهم بالشفاعة عصبة
ولا ذنب عنهم بالسـلاح قبيل

وهكذا يصل الزهاوي الى القمة في ايمانه بالحرية ودفاعه
عن القومية العربية

وهو لم يقف عند حد مقاومته للعثمانيين ولكنه ظل يقاوم
الانجليز في العراق في كل مناسبة يحس فيها بأنهم يقف ومون
حرية الشعب أو يفصبون حقه الشرعى

تلقى معاهدة وأخرى تعقد
والشعب يستفتى لها ويهدد
والشعب يطرى للجسالة خنجرا
فى صدره عما قريب يغمس
وكان يوم الغاصبين لحقهم
ليل وهذا الليل بحر مزبد
والشعب بالقيد الثقيل مكبل
حتى يكاد اذا تحسرك يقعد
للبعض كسوخ واطىء وللبعضهم
صرح كما شمس النعيم ممرد

والزهاوى بعد هذا كله بشر فاذا أخذ عليه نقاده ضعفا فى
بعض مراحل حياته أو موقفا هنيا فانما يجب أن نذكر انه كان
يعيش فى فتوة من أحلك الفترات التى كان يمر بها الشرق
حيث الاستبداد والاستعمار والبلاء كله يصب على الامة العربية
من الترك والانجليز على السواء وان روح المقاومة الفعلية لم تكن
قد أخذت بعد صورتها الحية القوية التى نراها اليوم . فهو
بالنسبة لجيله فى دعوة الحرية والقومية العربية سباق متقدم
من جيله وقد رجعت حرارة ايمانه وصدق كفاحه بما أخذ
عليه رجحانا كبيرا

بغداد في شعر الزهاوي

أحب الزهاوي بغداد حبا قويا عميقا صادق لم يتغير ولم يتحول
وقد سجل في شعره في عدد المواضيع شغفه بالعراق وحبه له
ولكن حبه لم يكن تقليديا يصوغه مدحا . وإنما كان حبا بصيرا
يحمل معنى الإيمان بالوطن . والدعوة الى تحريره وتخليصه
من قيود الفكر وقيود الاجتماع وقيود السياسة .
وقد كان يكره بغداد أحيانا حين كان يحكمها المستبدون
من الأتراك :

كراهيتي لبغداد في شدة وازدياد
أبدل لي قربها بالبعد
كراهتها نفسي ومل فؤادي

وهو في هذه الفترة يسميها دار الظلم والجهل والفساد .
ويقول انه في كل يوم مصيبة تتحدد ومشكل يتولد
أين ذهن قد كان يشبه برقا
سرعة في فهم الأمور وخفقا
حرقته نار التوقد حرقا
أنك اليوم لو تفتش تلقى
حجرة منه في ركام الرماد

ذلك أن الزهراوى الانوف المعتز بشخصيته كان يود أن
يختار لعمل ممتاز يليق بمكانته وشعره .. فهو فى غير مكانه
ثم هو يلقى حملات الخصوم من حوله فلا يلبث أن يقول :

سجن بفساد فى الحقيقة قبر

موحش فيه تدفن الاحياء

مجرات فى جوفها ظلمات

فهى فى الليل والنهار سواء

وقد ظل يحس بأنه دون قدره .. وانه لم يعط ما كان
خليقا به .. فحمل على العراق فى صورة حكامها من العثمانيين

اننى اليـسوم فى بلادى أسير

ليت شـعـرى متى يكون فكاكى

وفى ابان هذه الازمة النفسية فكر فى الهجرة الى مصر

فنظم قصيدته الخماسية

« أنت مصر ملجأ الاحرار » وفيها يقول :

شاعر بالعراق ينظم شعرا

فيرى دون نشر ما قال عسرا

فيهادى به على البعد مصر

حيث يلقى الشـعـر الملهب نثرا

ان مصر ريحانة الامصار

نبغ النفس عند مصر منساها

طيب الله بالسـلام ثراها

يلد حبيب النجاح سقاها

يجد البحر مائتاً في ذراع
أنت يا مصر ملجأ الأحرار
كان ذلك في أوائل القرن العشرين .. عندما فكر الزهاوي
في الهجرة من بغداد إلى القاهرة . وخرج غاصبا ولكنه لم
يثبت أن عاد بعد قليل إلى بغداد .

وكنتم هيبت قبيل سنين مصرا
فلم أصداً وفضلت الأياها
ذكرت مواطني وذكرت أهلي
وليلي والصباح والنسيان
وقلت لقد نأت ببغداد عني
فليت الدهر يمنحني اقترابا
ولو أنني رجعت إلى بلادي
لقبليت المنازل والترابا
وهكذا يبدو حبه لبغداد قويا دافقا حتى أنه لا يلبث أن
يقول :

اني اذا احتاج العراق فيالحياة له أجود
ان لم اذد أنا عن حقوق للعراق فمن يزود
ثم يعتدل رأيه في العراقي بعد أن تتكشف غمة الحكم
العثماني ويبدأ الحكم الوطني بعد أن يلى الملك فيصل الحكم
في العراق :

قد لقت صابا في حياتي بالعراق ، وذقت شهدا
ولقيت فيما قد لقيت بمواطني بغضا وسعدا
ورأيت بعد المد جزرا ثم بعد الجزر مدا

وقد شارك الزهاوى فى الحياة السياسية فى العراق مشاركة فعلية حتى لينسجل ديوانه جانباً كبيراً من صورة هذه الحياة . . . صور فترة الظلام التى سادت العراق أيام عبد الحميد ثم كيف تكشفت السحب عند بدء عهد الدستور فى الدولة العثمانية ثم كيف بدأت العراق تقاوم الاحتلال البريطانى فى العراق ويقيم الحكم الوطنى فيه

ونظم الزهاوى شعراً فى استقبال فيصل وفى استقلال العراق وفى الحياة النيابية وشارك فى استقبال غازى وبارك حكمة .

وقد سجل الزهاوى فى مذكراته التى عرفت باسم رسائل الزهاوى حالة العراق عند مولده عام ١٨٦٣ فقال : كان عدد سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى ألف نسمة تقريباً وحالتها الاجتماعية يومئذ منحلة ولا غساية لأكثر رجالها الا التزلف الى الحكام الاتراك وولانهم ولا منافسة الا فى الرتب والالقب .

وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٢٢ (وقت تحرير مذكراته) ٣٥٠ ألفاً وكانت العراق فى رداء غير ان الجهل كان يسود أكثر أهلها ولم تكن فيه يومئذ هذه المدارس المدنية المنتشرة فى أنحاءها الا الكتاتيب والمدارس القديمة الدينية وكان المقصود شديداً .

وفى بعض شعراء الزهاوى يذكر العراق فيقول :

أنا والحق في العراق مضاعفان
 وما فيه غيرنا بمضاعف
 وإذا جرت البقايع شسقاء
 لمقيم فتلك شر البقاسع
 وقد صور الزهراوي بغداد في أكثر صورة جميلة رائعة
 مسجلة أنها هي التي أوجت إليه الشعر :
 منك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء تلوح في
 ليلاها النجوم فرادى وأزواجا واشتاتاً وركاما وأرض خضراء
 أديمها هي منبت جسدي وعقلي وأصحاب يوالون وأعداء يناوون
 وجهاد مستمر وآمال بيض ويأس أسود .. وفساد في النظام
 وعادات سيئة تضر بالمجتمع ونفس في حرة لا تقم على الضيم
 كل ذلك قد أنطقني شعرا هو شعور كان يحش في نفسي قبل
 أن أنطق به .

بين الزهاوى وخصومه

عاش الزهاوى حياته فى حرب متصلة بينه وبين خصومه هو بعناده وجراته واندفاعه فى اعلان الراى الجرىء وخصوص معارك الحرية ومهاجمة العسادات المألوفة يثير فى كل يوم خصومة مع الحكام والولاة ورجال الدين والمحافظين . ولم يكن الزهاوى يصبر على النقد او يبتسم له او يسخر منه . وانما كان يواجهه فى غيظ وكراهية والم . يبلغ به احياى حد البكاء . . وقد يدفعه الى التفكير فى الهجرة والخروج من ارض الوطن .

وقد احتال لاعلان آرائه بكل وسيلة . . كان ينشر آرائه وقصائده بتوقيع رمزى . . وكان ينشرها فى غير صحف العراق . . ولكنه لم يكن يتنازل عن تصميمه وهو لم يعيش يوما دون معارك او خصومات مندفعاً فى حماسة وعاطفة وعناد . . وقد سجل انه كابد فى حياته مزيداً من الشقاء والاضطهاد . وأنه رأى عادات سيئة وفساد . . وأن نفسه الحرة دفعت الى أن يقاوم هذا كله ويعمل على ازالته . وقد شغل الراى العام بآرائه الجديدة الجريئة فخلق خصومات ناقده كانت تواليه بالتقريع والهجاء .

وقد صور الاستاذ ناصر الحانى فى محاضراته عن الزهاوى هذا الجانب من حياته فقال : وأغرب ما فى أمره ان اندفاعه المشهور وحماسه التى جاز خبرها حدود الرافدين . وقد اعترافا صمت طويل وصحب هذا صخب عليه . وتقول تضارب فى وطنيته وقوميته . وقد عزز هذا القول . اسندته السلطة المحتلة من مناصب للزهاوى قد لا تكون أعلى منه مقامها ولكن الظروف التى عهدتها اليه نابية جائرة فصصارت وبالا عليه . وظل فى حيرة من أمره وصار الناس ينظرون اليه بعين الشك والارتياب ولا يطمئنون اليه فكش أعداؤه ومقاساوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به .

ولم يكن ليحتمل ما وقع له فظل مضطربا يخشى الناس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة . . . وكأنه أدرك فشله بالمشاركة بأقصى محنة عرفتها (١) بلاده . فحاول أن يوذ بالتقاليد التى رزح فيها الناس والمشكلات الاجتماعية التى تحفهم فعمل على العقائد البالية . ودعا الى التحرر الفكرى . . . ومساواة المرأة بالرجل . ولم يكفر هذا سيئته عند الناس . فقد حاول أكثر من مرة أن يهجر العراق بعد أن توالى عليه النقد والتقريع . . . فقرر السفر الى سورية بعد سنتين بظنه على الثورة ولكنه لم يسافر الى سوريا وسافر الى مصر .

(١) ثورة العراق عام ١٩٢٠

وهو فيما يتصل هذا قال قصيدته :

سأرحل عن بغداد رحله عائف
فقد طال في دار الهوان قعودي
وأفرح من إلى ومالي وموطني
وما كان لي من طارق وتلبس
ولم في عمري كبغداد منزلا
به العلم لا يجزي بغير جحود
رأيت بها بؤسا وشاهدت نعمة
فلم أسترح من شامت وحسود

يقول الاستاذ ناصر : ولم يستطع الزهاوي أن يطيل مكثه خارج العراق فكانت غيبته استجماما فصدفت الناس عنه قليلا فاستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الاحداث العامة وأن يوقف نفسه لها فيثيرها ضجة على الحكومة .
والواقع أن الزهاوي كانت له مع أهل وطنه مواقف لعلها هي التي دفعتهم الى الحماسة عليه . ولعلها هي التي جعلته يسرف في الدعوة الى التجديد والحرية وتحرير المرأة .
ومن أهم هذه المواقف : مديح الزهاوي للسلطان عبد الحميد أولا ثم حملته عليه . . وفي ديوانه الكلم المنظوم قصيدة يقول فيها :

لسلطاننا عبد الحميد سياسة
طريقتها في المعضلات هي المثل
ماذا على السلطان لو أجرى
الذي يشताقه الاحرار من اصلاح

سللت لنصر الدين سيف وعزيمة
 قللت به ما لم يكن فيه سهلا
 فجهزت جيشا لنجساده عرمرما
 قهرت به ذاك العدو الذى ولى
 ومن هذه المواقف قصيدته فى مدح الانجليز والتي جعل
 عنوانها ولاء الانجليز (١) وفيها يقول :

وجدت الانجليز أولى احتشام
 أباء الضيم حفاظ الزمام
 أحب الانجليز واصطفاهم
 لمضى الاخساء من الانام

ولقد كان لهذه القصيدة أثر مظلم شديد الظلمة على حياة
 الزهاوى فقد أحقه عارها طوال حياته وكانت كما قال الاسناد
 ناصر من أسباب حملة خصومه عليه وصجرتة .

وقد كتب الزهاوى فى رسائله (٢) معلقا على هذا الحادث
 الخطير فقال : لما ذهبت الى الاستانة واختلطت بالترك الفتيان
 أبعدت بالتجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعرة فى أهميات
 الصحف المصرية . وقد ذهبنا فى حرب الانجليز والبوير
 جماعة من الترك الاحرار نتمنى للانجليز العوز فى محاربتهم
 وذلك بقرار من الحزب المناوى لعبد الحميد . . يريدون بذلك
 أن يعضدهم الانجليز فى طلب الدستور . وكتب نطقت لهذه

١ - ديوان السليم المنظوم

٢ - الكاتب المهنى - ديسمبر ١٩٤٦

الغاية قصيدة أمدح فيها الإنجليز وأشدو بقوة أسطولهم . وقد
نشرت في أول ديواني (الكلم المنظوم) وإلى الآن يعينني ناقدى
على هذه القصيدة . ولكن هل كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث
حرب عالمية ويحتل العراق . هذا ما لم يخطر في بال أحد .
وهو دفاع ضعيف ولاشك . . . وأهل الزهاوى قد حاول بعد
ذلك أن يدفع بشعره في مجال التكفاح الوطنى ليطغى على هذه
القصيدة وهو أن كان قد رنى بعد ذلك أحرار سوريا الذين
شقهم أحمد جمال السفاح فأنه صور الثورة بصورة الوبال
على البلاد .

وقد كان مما أخذ عليه أنه قعد عن الثورة العراقية الضخمة
فلم يتناولها بيت واحد من الشعر ، وقد كان مما أخذ عليه أنه
قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت من الشعر
ومما يسجله الزهاوى في هذا الصدد ويأخذه عليه خصومه
أنه عندما وقعت الحرب العالمية واحتلت الجنود البريطانية
بغداد . . . أرادت أن تأخذنى إلى الهند أسيرا . ولكنى أبزت
ورقة فيها مراحة بآنى مكاتب جريدة المقطم فأفروا عني . .
وكانت هذه الجريدة موالية للإنجليز .

وقد صور الزهاوى موقف خصومه منه في بعض شعره :

قالوا دخیل فی القریض فما أجاد ولا أجدا

قالوا صغیر لا یعد من الفحسول ولن یعدا

قالوا إلى الاحسان منه غیره فی الشمسیر أهی

وله جراء فیلسوف یوسع الا دیان مجسدا

ویصور خصوماته دائما بأنها فی سبیل الفکر

وما آن لى الى الجهل ذنب
فيغريهم بنفسي ان يكيـدوا
سوى انى مخالفهم وانى
لكل خرافة منهم جـود
وقد توعدده قوم بالقتل لجراة رايه ولكنه لا يبالي بهم :
توعدنى بالقتل قـوم وانما

لكل امرئ فى الموت يوم وميقات
برئت من العلياء ان كان لى بما توعد فى القوم اللثام مبالاة
وربما اراد الزهاوى أن يكفر عن هذه الاخطاء فقال فى مقدمة
ديوانه الذى أصدره عام ١٩٢٤ « ما حمدت الا من ظننت فيه
خيرا للبلاد وربما خاب ظنى فى بعضهم فكففت »

قد مدحت الذين لم يسـتـحقوا مدائحي
أحسـبـوها على ضرورتها من قبائحي
ومن المأخذ التى سجلها هو على نفسه مدافعا عنها قوله
قد يعلق بنهن الشاعر شطر من بيت سمعه لمتقدم فيأتى
بعد سنين فى تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام لذلك . وهو
ناس انه مقول . فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة . .
كما يعتذر عن بعض شعره الذى وصف بأنه نظم رگيك
أو سطحي المانى :

لا أغالى فربما قلت شعرا
لم آكن فى قرضى له بالمجـيد
منه بكر بطرى ومنه عـوان
لم يحز رتبة الكعباب المزيـد

قلته لاهيا في سبيل
 من هموم الهوى وروح الصدود
 يوم للخيد كنت أصيبوا ومن
 ذا ليس يصبوا الى الحندان القيد
 ثم أرهفته فكان سسلاحي
 ثم غنيته فكان شسليدي
 ثم صسيرته مجنا يقيني
 من فروق شر عبد الحمسيد

الزهاوى والموت

للموت فى شعر الزهاوى مكان كبير .. فهو الرجل المجدد
الذى حاول أن يقتحم فى الحياة بقوة .. كان يصود فيذكر
الموت ويخشاه ويقف عنده وقفات تختلف مع السن .
وهو يصور فكرة الموت وما بعد الموت من أهوال :
للمرأ فى الارض الفضاء مساكن
انى مضى والقبر آخر مسكن
والموت فوق جنادل وصفائح
كالموت حم على فراش لين
قالوا وراء الموت أهوال ولم
أخجل بما قالوا ولم أتيقن
ولعل هذا الموت مبدأ رحلة
للروح خالصة وراء الأزمن
وكاننا صور الخيال لبرهة
تبدو وتحفى فى شمساع الاعين
قد سرت قبل للسورى متجلا
ولعلنى بك لاحق ولعلنى
لا تسألونى عن مصير من انطوا
أنا بالعصاوقب لميت بالمتكهن

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

تبني الحياة لها الصروح من المنى
والموت يهدم كل ما هي تبني
في الكون هذا كل شيء ممكن
الا البقاء فذاك ليس بممكن
لا بد من موت لمن هو عائش
فأشجع اذا قابلته أو فاجبن
ان الموت لرايض متحين
مماذا مراد الرايض المتحين

وهي قصيدة احساساتي يصور الموت في صورة أخرى .
وقد نظمها قبل موته بشهور قلائل وكان قد نزل من السيارة
عند باب السوق في بغداد يريد مقابلة أحد الكتبيين فسقط
مخمي عليه فحملوه الى داره فقال . . قلت لعل يومى قد اقترب
وهي آخر قصيدة قالها قبل موته :

قد أتى يا منيتى أن تصودى
بى الى حيث كنت قبل وجودى
ليس من هذا المسوت لأنفس بد
فهو للناس من تراث الجسدود
يا أماني فارقيني ويا نفس وداعا
ويا حساشه جودى
لا تخافى على الموت سهلا
لا كما يعتونه بشعبه
لا تخافى ليس على الارض ولا في سماؤها بجديد

ولعل الصبا يمر رخاء
 فوق ملحودتي فينفض عسودي
 لا أنيس ولا نسيم ولا نور
 يزيل الظلام عن ملحودي
 يوم لا تبصر الربيع
 ولا تصفى لانغام الليل الفريد
 يوم لا تطلع النجوم علينا
 بأسماء من السماء كخود
 يوم لا يسفر الصباح لنا
 من جانب السماء قائماً كعمود
 يوم أيدى الردى تجردنى
 من كل طارف وتليسد
 سيقولون شاعر غاب فى اللحد
 وكم غاب مثله فى اللحد
 سبقتنى الى المقابر موتى
 أنا فى الراجلين غير وحيد
 بعد نومي على فسراش وثير
 عن قريب أنام فى أخدود
 لا أنيس ولا نسيم ولا نور
 يزيل الظلام من ملحودي
 غير أنى ما أن سئمت حياتى
 وعبوطى وهادها وصعودي

ما بلغنا من اللبافات يا نفسى
 سنوى النشور بعد جهد جهيد
 يممى يا نفسى السمسما فاني
 لا أرى فى الثرى طريق الخلود
 ان تلك السماء كالارض هذى
 حومة تسمى للكفاح الشديد
 لا يخيفك اللقضاء بحرب
 هى بالشار تلتظى والحديد
 أنت حاربت للتحرر أعواما
 طوالا فحاربى من جديد
 أنت فى الارض ما نطاطات حتى
 تخضعى فى السماء أو تستفيدي
 انما أنت للتمرد لا للخسف
 فالرسف فى ثقال القيود

وفى هذه القصيدة يبدو الزهاوى وهو على أبواب الموت فى
 عناده وشماسه وكبريائه .. مدلا بشعره وجهاده فى سبيل
 التحرير . كما يرى أنه بالرغم من بؤس السبعين لم يزل يحب
 الحياة ويرى أنه لم يقضى منها الا اللبائت اليسيرة بعد الجهد
 الجهيد . وأنه سيحرم من أنوارها وضحاها وجمالها فى حسرة
 بالغة ..

ويتصل بالموت شعره فى الرثاء ويمتاز بروح حية وأسلوب
 طليق وفلسفة عميقة يتصل دائما بالموت والحياة

يرني المتبنى في لدري الأنمية فيقول (١) وكأنه يدرك
نفسه :

ما أنت يا أحمد في دولة الأدب
إلا الزعيم والا شمس العرب
وما تنبأت في دين كما زعموا
بل في الفصاحة سياقا وفي الأدب
فكان يوحى اليك الشعر عن شحط
وكنيت في قيادة الآداب أولهم
وكان يوحى اليك الشعر عن كسب
وكنيت أولهم في الجحافل اللجب
وكنيت في الشعر مثل الماء منطلقا
وكنيت في الحرب مثل النار في العطب
كم حكمة لك سارت في الوري مثلا
قد قلتها بلسان الشاعر الذرب
كم دولة للقريض الناهض انقلبت
لكن عرشك فيها غير منقلب

وقال في تأبين الشاعر عبد المحسن الكاظمي (٢) وهو من جيله
وواحد من أربعة شعراء العراق الجواهري والكاظمي والرسافي
والزهاوي :

صدق النعي ومات عبد المحسن
يا شعر أنيمه ويا نفس أحزني

١ - الرسالة ٧ يناير ١٩٣٥

٢ - الرسالة ١٠ يونيو ١٩٣٥

يا شعر ومحسن قد كنتما
عمرا رفيقي غربة وتوطن
قد عشتما في كل منزلة معا
كالفسوق بين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أراني داريا
أشسفت بالنسرين أم بالثنوشين
حتى احتوته يد المشايخ بقة
بمخالب معشوقة كالحجين
لمن الزعامة في القريض ومن لها
بعد الحفي الشاعري المتقن
ملأت قصائده القلوب حسانة
من بعد ما شسخت جميع الألسن
شعر يكاد يسيل منه لفظه
مثل السندى من رقة فيهنى

عقيدة الزهاوى

كانت عقيدة الزهاوى هى بؤرة نقد خصومه .. والدهوى المنطلقة فى كل مكان .. كن الناس يقبولون ولا زالوا : ان الزهاوى كافر وملحد وزنديق ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . ولا بالبعث والنشور . وهو اتهم يوجه الى كل شاعر مجدد . وكل مفكر جريء وكل مصلح سبق زمنه .. او اديب اراد ان يهز حياة قومه الجامدة .. وما من كاتب أو مفكر أو شاعر لم يحسمه وتآلف الا وكان له من خصومه مثل هذا الاتهام .

فهل الزهاوى حقاً ملحد . وما هى عقيدته .. لنُدع شعره فى مختلف مراحل حياته يكشف لنا عن الحقيقة .

فى ديوانه الكلم المنظوم الذى أصدره عام ١٩٠٧ وهو أول دواوينه يقص القصص على لسان امرأة تحدثت معه فى هذا الشأن قالت :

أأنت الذى بالزعم يذكر الناس
إذا ما ردينسا لم نعد مرة أخرى
فينكر بعد الموت عود حياتنا
وتجحد فى أقوالك الحشر والنشرا
فلو لم تكن دار يجازى بها الفتى
تساوى إذا من بفعلي الخمر والشر

ويرد هو في نفس القصيدة فيقول :

ندمت على ما كنت فرطت قبل ذا
يسوء اعتقاد لي الى الكفر جرا
لقد قلت قولا باطلا بجهالة
حنانك اللهم يا خالق غفرا
لقد ثبت عما كنت معتقدا له
فان لم تنب ربي على فواخسرا
شهدت بأن الله ربي واحد
تنزه عن عيب يشمين له قدرا
اذا غنى الشيطان عن منهج الهدى
وكان يميني فانحرفت الى اليسر

وفي هذا اعتراف صريح من الزهاوي بأنه انحرف في رايه
ثم عاد فاعتدل مرة أخرى . وفي عباراته معنى التوبة والرجوع
الى الحق الذي اعتقده بعد أن عرفه . وما على الزهاوي من
بأس في هذا ولا ضير :

ويقول في قصيدة : احساساتي

لست أدري اللغناء ستمضي
بعد ما نموت أم للخلود
انني في شك وان ملأوا سمعي
بوعسدي يروونه بوععيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما
ان رأي الجمهور غير سديد

تاكل الارض كل حى فلا تبسقى
 على والد ولا مولود
 ام كلها بيد فتانى
 ام اخرى بعدها لليود
 سوف يقفو ركب الى الموت ركبا
 ثم لا افسدو خلفه بنشيدى
 وفى هذه القصيدة يعود الزموى الى الشك فى الحياة بعد
 الموت ولكنه لا يلبث أن يقول فى نهايتها :
 كلنا مؤمن يسبح للرحمن
 فى ظل عرشه الممجد
 اننى ما سجدت يوما لغير الله
 فالله وحده معبودى
 وفى هذه الصراحة قوة وصفاء ووضوح :
 وهو فى أوضاع مختلفة من شعره يدافع عن نفسه هائلا
 لا اتهام (١)

ما حياء قديمها غير باد
 لك الا تطور فى الجماد
 ولقد بهلك الذى يتوقى
 وقد لا يعيش أهل الحياء
 أى ذنب لى أن تباعدت
 الشقة بين اعتقادهم واعتقادى

١- قصيدة تطور فى الجماد - الرسالة ٦٥ فبراير ١٩٣٣

كلما خالف الجماعة في الرأي
ي جرى رموه بالاحساد

وفي قصيدته الضخمة : نورة في الجحيم - يعاود تصوير
إيمانه فيقول :

كان ايماني في شبابي جم ما به نوره ولا نقصير
غير أن الشكوك هبت فلاحيني فلم يستقر بي الشبحور
ثم عاد الايمان يقوى الى أن سلمه الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم انحدث حتى قيل هذا مذنب مغرور
ثم دافعت عنه بعد يقين من ما يفعل الكمي الجسور
وتعمقت في العقائد قبل هذا علامة غرور

ثم اني في الوقت هذا نخوفي
لست أدري ماذا اعتقادي الاخير

وتعطي هذه الابيات صورة الزمناوى وهو بين الايمان
والاحاد باحثا حتى وصل الى الاقتناع عن طريق العلم والبحث
لا بالوراثة والتقليد وهو يقول في شأن عقيدة المقلد وعقيدة
البصير الباحث :

أمن اكتفى بخرافة فهو مؤمن
ومن امترى فيها من الكفرار

ولدى النهاية جاهل في جنه
فيها النعيم وعالم في النار
ولم يدع الزهاوي خصومه ينطلقون في اتهامهم له فصرخ
فيهم صرخة عارمة :

يا قسوم مهلا . مسلم أنا مثلكم
الله ثم الله في تكفيرى

حكمة الزهاوى

قال نقاد الزهاوى أنه أشبه بالمعري من ناحية والشمسية بالمتنبى من ناحية أخرى وأرادوا بذلك أنه يمثل المعري فى قصائده الجريئة وآرائه فى الحياة والموت وما بعد الموت وحربه على خرافات الدين وأوهام العامة . . . وأنه أشبه بالمتنبى فى اعتقاده وكبريائه وفلسفته واعتزازه بشعره وكذلك حكمته المنشورة فى طوايا قصائده .

والحق أن الزهاوى كان فيلسوفاً وأنه كان يتعرض لقضايا الحياة فى قوة وجراءة حتى يمكن أن يطلق على أدبه ذلك أدب القوة .

يقول :

ليس الحياة سوى نزع دائم
يا للضعيف به من الجبار
يا شبيب لستم للروغى فتأخروا
وبدار يا شبان ثم بدار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا
حتى م تحت اللون فى الاطمئار
وتحرروا من نير كل خرافة
خرقاء تلقى الزيف فى الافكار

وتحرروا من قيد كل عبيدة
سوداء ما فيها هنى للمسارى
ويصور الحياة والموت فى صورة رائعة :
لقيد راعنى رزايا توالى
والبرزايا اذا توالى تروع
ورأيت الايام تأكل من أعمارنا
فى الحياة وهى تجوع
وكان الارض التى هى وارت
كل هنى القبور قبر وسيع
وكان السوء قبة دير
وكان النجوم فيها ششوع
كلما شاعلت المقابر حولى
أخذتنى مهابة وخشوع
ليس للقادمين منا بقاء
ليس للذاهبين منا رجوع
ومع هلال محرم يمشو داعيا أبناء العروبة الى المجد والحرية
والكرامة :

ومن لى بعام لا يشمابه غيره
أرى فيه اطفال البفاة تقلم
وأبخل أرض بالرجولة يقعه
يضلم الفضى فيها ولا يتيرم

ادير عيولي في الوجوه فلا ارى
 تنوى الدل مقبروا ولا انوسم
 ليحزننى ان القنادل انرت
 سمونا وان الزمهر لا يبتسم
 بنى وطنى لا تستكتوا عن حقوقكم
 اليس لكم منكم فم ينكمم
 لكم ثروة في الارض القا بها لكم
 وارباها للفرب نهب مقسم
 لا فخر الا للذى هو ماجد
 ولا مجد الا للذى يتفهم
 وما الحر الا من اذا خصم لم يخن
 وان قال حقا فهو لا يتلحم
 وما بال ابناء العروبة اصبحتم
 على الدل اشتاتا نشب وتهرم
 وما بال ابناء العروبة سلبت
 وقد كان عهدى انهما لا تسلم
 لالام قومي الضسيد نفسى تالت
 لك الويل يانفسى التى تسالم
 وهو معيب للحياة مهنا علت به السن يدعو الناس الى
 المتاع (١) هنا :

يا نفسى يا تنخدعى بالزاهد المنقطع
 دنياك هذى تحتسوى على النعيم اجمع
 تنعمى بخسيرها قبل دنو المصراع
 وبالحياسة ما صفت تمتعى تمتعى
 لكل باب تحسبين الخير خلفه اقرعى
 وانتهزى القرصة قبل فوتها واسرعى
 بالنسمات تبغين السؤال لا بالادمع
 وهو اشتراكى يدعو الى المساواة

لا يعرف المؤلم فى الحياة الا المؤلم
 ألف يعيش بائسا وواحد منهم

ثم يعاود هذا المعنى بصورة أقوى وأوضح :

ان من كدوا يزرعون البقاها
 اشبعوا غيرهم وباتوا جوعا
 ربيع المالكون الارض عضضا
 ومضى كد الزارعين ضعا
 يقفر الدهر ألف بيت ليغنى
 واحدا من افراده جوعا
 لا ترى بين أو ليهم ثريسا
 كانزا للاموال أو منسا
 ومن العدل يكون نتاج الارض
 بين المستثمرين مقسما

ان بين الحق المحصن والباطل
منذ الدهر القديم نزاعا
ولقد ذكر الزهاوى كثيرا انه تتلمذ لابي العلاء وهو يقول
مخاطبا اياه فى قصيدة له من ديوان الاوشال :

وانى اكبر شئ فىك يعجبني
سخرية من تقاليد وعصيان
أنكروا فىك الحسادا وزندقة
وعلى ما أنكروه فىك بهتان
اننى تتلمذت فى بيتى عليك وان
أبليت عظامك أزمان وأزمان
أصابنى فى زمانى ما أصابك من
حيف فما رد هذا الحيف انسان

وهكذا يصل الزهاوى الى أن يربط نفسه بالمعرى فى تشابه
حياتهما وما لقياء من الجماهير
وقد عارض الزهاوى قصيدة ابن سينا عن الروح فقال :

طارت بعز للسماء الا رفع
ورقاد كانت فىك ذات تخضع
قد كان مسكنها بجسمك ضيقا
واليوم تسبح فى مكان أوسع
الله أربنا اليك وبعد أن
مكثت قليلا فىك قل لها ارجعى

وان كان لم يتم هذه القصيدة وقال : حال دون امامها مانع .

خدعوها بقولهم حسنا
شعرها الليل والجبين ذكاء
غرها ذلك النساء فلانت
والغواني يغرن النساء

ومن شعره الحكمي قوله :

ما اكبر الاخلاق في نفسي امرى
ان خاشعته الناس لم يخشعوا

وفوله :

ما قلت شيئا بغي
الا وعقبي
انا ابن عقلي وحده
تنبئني عني كلمي
به اهتديت في شـبابي
مثلما في هـرمي
ربما كانت أمـور
انا عنـهن عمي

دموع الزهاوى

لدموع الزهاوى قصة طريفة . . فقد عرف بأنه صاحب
دمعة . . وكان هذا مصدرا من مصادر متاعبه . ولطالما ردد فى
شعره قصة الدمع . . غير انه عاد فى آخر أيامه . فدعا الدمع
الى أن يقر فى العيون . . ويرجع على الاعقاب :
يقول فى ديوان الكلم المنظوم :

الأياد مع انك ترجمانى
فبين للأحبة ما أعسانى
اليهم فى فى فؤادى بعض تسكو
ى لسانك فيك أفصح من لسانى
ويقول :

ابك فان عبرة الباكين سلوى لهم
اليس ثعر الدم فى وجه الحزين يبسم
ويقول الأستاذ ناصر الحائى فى محاضراته عن الزهاوى :
« عرف ان دموعه طيبة ، وانه يبكى اذا ضجر وثار . ويبكى
إذا ابتهج وسر . وعرف عنه بعض مناوئيه ومفيطيه هذا . .
فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه ما يبعث الفرح اليه حيناً . .
وما يفيظه ويبعث الثورة فى نفسه أحياناً . وظل يعيش فى

عالم خاص به - لاسيما في شيخوخته - ويرى أن قسومه لم
ينصفوه . . .

وهو في قصيدة : دمعتي يكاد يصور هذه الحقائق كلها :

أنت أما أن تخففين مصيبي
دمعتي فأرجعي على الاعتساب
أنت لا تدرئين عني دائي
أنت لا تصلحين منه خسراني
أنت لا تجدينني في شوقائي
أنت لا تنقذينني من غمائي
أنت لا تدفعين وطأة شيبتي
أنت لا ترجمين عهد شبابي
أنت لا تقدرين أن تهينني
راحة أو تسكني أعصابي
أما أنت قطره مستبيلين
إذا سلت بقعة من ثيابي
أو تضيئين بين لحيتي البيضاء
أو تنيضين فسوق الشراب
أرجعي فالحياة ليست تساوي
أن تخزي من حلق كالشهاب
لا تخزي وإن قضى أن تخزي
سبب قاهر من الأمسباب

ان نفسي لا ترضى ان تهونى
 كسجوني وان ملان أهسابى
 يا ابنة الهم ان غرفتك القلب
 فلا تخرجى الى الابواب
 انا لم أسأل الغيـون بكاء
 لتكونى على السؤال جوابى
 واذا ما هبطت بالرغم منى
 طال يادمنى عليك عتسابى
 انا ان بكيت أبكى بشعرى
 ولقد أهديه الى الاحباب
 كل بيت منه اذا عـرود
 دمعـة تـرـة على الاداب
 بين شعرى وما يجيش بصدرى
 من شعور وشائج الانساب
 انا عنه محـدث وهو عنى
 وكلانا فى القول غير محاب

ويقول فى رسائله ان آلامى المعنوية اكبر من آلامى المادية .
 فانى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس . وكلما
 انخدع بالباطل تمزق قلبى من الاسى . . . وكلما خضع للظلم
 شرقت بدمى .

الشعر المرسل

دعا الزهوى الى الشعر المرسل وحاوله على أساس انه جزء من دعوته الى حرية التعبير والقصيد . وقد نشر في هلال يونيه ١٩٢٧ قصيدة أطلق عليها اسم « بعد ألف عام » وقال انها قصيدة من الشعر المرسل الذي استحدثته في الشعر العربي مطلقا اياه من قيد القوافي . ذلك القيد الثقيل الذي تبرم به الشاعر وحببته الالفه الى السمع وما أرى لالتزامه من ضرر غير انه من تراث الماضي الذي بقي دهرًا يشل الشعر في مجموعه . . فلا يمنحه حرية لايراد القصص وبث الآراء والوصف كما ينبغي . ولا يدلّه في الموسيقى التي تجعل الشعر الا وهي الوزن . . وحسبك دليلا على أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب فيلذه القارئ عارفا أنه شعر من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه في القافية . .

ما أغنى أرجل غواني الشعر عن خلاخيل القافية . . وأغنى السمع عن سماع وسوستها التي تشوش عليه موسيقى الوزن ومن نكد الشعر العربي أن قيد القافية فيه أثقل منه في الشعر العربي . . بطيء التطور بحسب الحاجات العصرية التي لا يشبعها ذلك القديم الضيق واني لا أريد اليوم رفع القافية من كل أقسام الشعر فذلك عسير على الأذواق التي ألفتها منذ

عصور طويلة وأحقاب بعيدة . . ولكن أي بأس في أن يوجد نوع من الشعر المرسل كما يوجد المقيّد . وإن يكون هذا النوع خاصا بالقصص والوصف والجدل والحكم حيث ينبغي أن يسير على صوت موسيقى الوزن حرا طليقا في مجال واسع لا يرسف في قيوده مثقلا .

وقد نشرت لي المؤيد في مصر قبل أكثر من عشرين سنة قصيدة بعنوان الشعر المرسل ونشرت لي جريدة في العراق قصيدة أخرى قبل سنتين تقريبا فقامت حول هذه قصيدته المدهفظين على القديم . وكان لي يومئذ انصهار كما كان لي خاذلون . وقد رددت على نقد الناقدين يومئذ بسلسلة مقالات أثبت فيها أنهم كانوا على باطل . .

والواقع أن الزهاوي حاول أن يكسب انصارا للشعر المرسل ولكنه هو شخصيا رجع عنه بعد ذلك إلى النظم والقافية بعد أن تبين أنه لا يرضى إلا القليل . ولعل هذا النموذج الذي نوردته من قصيدة «بعد الف عام» تبين مدى نجاح التجربة .

حكومتهم شبه اشتراكية فما تنعم بأفراد وتشقى جماهير يعيشون أحرارا فليس مسيطرا عليهم سوى الحكّام
أحاطوا بأسرار الطبيعة خبرة

فلم يبق عنهم من نواميسها خافي
وقد عرفوا عفو الغريزة كل ما له نحن كنا بالروية نعرف

وإذا ما أرادوا السير والجر واسع
 وأما أرادوا المكث فالارض مبللة
 يرى بعضهم بعضا ويسمع صوته
 وبينهما الارض القوسية تفصل
 ويقرا كل منهم فكر غيره
 قديرا فلا تخفى عليه السرور
 وقد كان الزهاوى في هذا يقلد ولز وجول فيرون وغيرهم
 من المتنبئين .

بين الزهاوى والرصافى

عاصر الزهاوى ثلاثة شعراء فى العراق : الرصافى والكاظمى والجواهري . . ولكنه ارتبط فى ذهن الكثيرين بالرصافى . ولعل مرجع ذلك الى أنهما كانا كمرسى رهان فى ميدان واحد : وقد وصف كل منهما بالجرأة على المعتقدات .
والواقع أن الزهاوى ولد سنة ١٦٨٣ توفى عام ١٩٣٦ وعاش ٧٣ عاما والرصافى ولد عام ١٨٧٥ أى بعد الزهاوى باثني عشر عاما وعاش حتى سنة ١٩٤٥ وبلغ من العمر سبعين سنة .

وقد قيل كثيرا أن هناك خلاف بينهما ولكن الزهاوى قال غير هذا فى بعض قصائده ان الرصافى بالنسبة له كهسارون الى موسى وقدم نفسه كعادته

وانى بمعسوف لاأعتر انه
أخو ثقة والحسر يعتز بالحسر
كلانا يريد الحق فيما يقوله
وانى وايام الى غاية نجرى
فخذ يبدى اللهم فى كل دعسوة
وهذا أخى معروف فأشديد به أزرى

كما أشار الزهاوى فى رسائله (يناير ١٩٤٧) ومجلة
 (الكاتب المصرى) بقوله : أما النزاع بينى وبين الاستعلاء الرصافى
 فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين .
 ومعنى هذا ان هناك خلافا كان قائما فى فترة ما . ولمست
 اعرف وجهة نظر الرصافى فى هذا الخلاف كما لم يصل الى
 أن الرصافى رثى الزهاوى بعد موته والواقع أن هناك فارقا
 وخلافا شديدين بين عنهم كل من الشعاعين ومذهبهما فى
 الشعر والحياة . ولعل الزيات حين وصف الزهاوى بأنه كان
 قريبا من المعرى وأن الرصافى كان قريبا من أبى نواس كان
 يعكس الحقيقة . . فقد عرف أن الرصافى عاش حياة عمارية
 جريئة كلها متع وخمر وجراة على التقاليد . . بينما لم يفعل
 ذلك الزهاوى الذى كان مريضا . . وكان حريصا على الاحتفاظ
 بمظهر الوقار والكبرياء ليترك فى نفوس الناس دائما صورة
 الدعاة وأصحاب الرسالات .
 وما قاله الزيات أن الرصافى (١) تميز بالصراحة الجادة
 والاستهتار البالغ . وأنه هو نواس العسراق فى حين كان
 أستاذه الالوسى يريد أن يخلف معروفا الكرخى الصومى
 المعروف . ولعل اضطراب حياة الرصافى يرجع الى أنه لم يجد
 ما كان يطمح فيه من مكان فى عهد فيصل مما دعا الى أن يعلن
 الخصومة على الملك ووزراءه

ولكن هذا لا ينقص من قدره كشاعر . يضمحه النقاد بين
 الاوتار الخمسة للشعر العربي الزهاوي والرصافي وشوقي
 وحافظ ومطران (١) وكان الدكتور طه حسين قد مضى بأمانة
 الشعر التقليدي للعراق بعد وفاة شوقي (١٩٣٢) وقد علق
 الزيات على هذا بأن الزهاوي يفضل ان يكون في ساحة المجددين
 على ان يكون في طليعة المجددين .
 وقيل ان الفرق بين الزهاوي والرصافي ان الزهاوي
 اديبه عالم والرصافي فنان اديب .

الزهاوى فى رأى مؤرخيه

يروى الاستاذ الزيات أن الزهاوى كان يحضر فى آخر أيامه ندوة السيد صبحى الدفتري محفظ بعزاز فى داره ضخمى الجمعة من كل أسبوع يحضرها الزرراء والزعماء والادباء والقادة .. فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث .. ولكن الزهاوى كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه الندوة لان جميلا كان آية الله فى فكااه الطبع وظروف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث . وكان له فى القاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار القلب نسوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع .

ولعل أبلغ مظاهر حياته هو ذلك القلق والتشاؤم والتملن ولا يشعر بالطمأنينة ينطلق يشكو دائما كل من يلقيه عن جمود الامة واغفال الدولة وكيد الخصوم والحاح المرضى .. وكانت الحيوية تقبض من كلمته .. والعزيمة تصطرم فى نظراته . وهو كتلة من الاعصاب القوية المشدودة (١)

١ - وحى الرسالة ٢ الصادر عام ١٩٤٤

١ - الزيات - الرسالة ١٩٤٧

وهو بين الشكوى والزهو والطموح والقلق والتمرد يعيش حياته

يقول الزيات : كان الزهاوى يهزج بأغساريد الفجر على ضفاف دجله فتتردد أصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذي أوصل القلوب العربية في مجاهل القرون القديمة بخيوط الهية غير منظورة ولولاها لما تهيأ العراق هذه الزروة .
وانه ساعد على انهاض العرب بوثوب فكره . . وعلى احياء الادب بوميض روحه .

وقد قال بعض مؤرخيه انه : راوية لا يبارى . . فكان صدره يعنى من الاخبار والنكات والحوادث ما تضيق دونه المجلدات وكان له في الرواية أسلوب خاص يأخذ بمجامع سامعيه .
وانه كان في أخريات أيامه يتردد على قهوة معروفة في بغداد فيلتف حوله تلاميذه ومريده ويستمعون الى رواياته الشائقة وأحاديثه الممتعة ونوادره المضحكة ولا يقاطعونه ولا يجرمون على معارضته .

وقد عنى بعض المستشرقين والكتاب الاجانب بآثاره وكتب أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى : ان ما يحتوى عليه ديوان الاوشال هو أروع ما قرأناه في الشعر العربي العصرى . وكتب المستشرق الدكتور ودمر الالماني ترجمة حياته . وترجم قصيدة ثورة في الجحيم وخمسين قصيدة من اللباب و٥٣ رباعية الى الالمانية وكتبت عنه بعض صحف برلين مقالات وأبحاث .

وجملة قول نقاده ومؤرخيه : أنه حصل لواء التجديد في
 الشعر العربي ودعا الى الاخذ بكل جديد من الاراء والافكار .
 وتحمل في سبيل ذلك كل اذى فقد كانت بيئة العراق جمود
 وظلام وقد غمرتها الامية وطمى عليها الجهل . (١) وقد ألف
 الناس الخضوع لجبروت الحكم والخضوع لبالي العادات .
 وما أضغاث المشعوذون عليها من أثواب التقديس والتعظيم .
 وكان أي واحد يخرج على بعض التقاليد يتهم بالزندقة والكفر
 أو يتحدث عن شيء مما ابتكره الغرب حتى يرمى بالبدعة
 والمروق في الدين .

وقد نقد الاستاذ سليم طه زباعياته . . وقال انها ركيكة
 المعنى مهلهلة الاسلوب تعوزها الصناعة الفنية وتنقصها دقة
 التعبير الى جانب السبك في النظم وحسن اختيار الكلمات .
 ومن جماع ما يقال أن القلق كان أبرز معالم شخصيته .
 وان ارتفاع السن والحياة الطويلة أعطته شيئاً من القداسة .
 وان عواطفه وآرائه تبلورت بعد سن الأربعين . وانه لم ينظم
 شعراً في الثورة العراقية وان والدته هي التي أورثته الصلابة
 ولعناده . وانه كان يحب المدح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعاً .
 وانه تأثر بأحداث العراق والبلاد العربية وانه عاش حيساته
 شاكياً ضجراً قلقاً . وكان التشاؤم والتعطيب والضيق
 والشكوى من أبرز مظاهر حياته . . وقيل ان غلله وأمراضه
 التي لازمته طوال حياته لها أثرها في اتجاهاته وكانت مصدر

١ - من مقال في مجلة يونيه ١٩٤٩

فلقه وجزعه واكتسابه وقالوا ان فيه تناقض واضطراب وعاطفته تغلب عقله أحيانا . ولا يستطيع أن يطوى صدره على الالهام الخاصة . . وكان يحس بأنه دون قدره وان لم يعط ما كان خليقا به .

وقد سبق الزهاوى جيله وتأثر بالتيارات الفكرية وعاش في مرحلة انتقال واضطراب بين الدين والوطنية وبين العثمانية والحرية وبين الاستعمار والاستقلال وبين الترك والعرب . . وأبرز ما فيه ثباته على ما دعا اليه . وقد عرف « بيلي » فقد كانت (١) حلمه الذي صبا اليه وأمانيه التي حط عندها رجاله فهي في في الحقيقة وطنه العراق وهي فتاة أحبها أيام كان في الاستانة .

وقد أطلق روفائيل بطي على الزهاوى اسم « فيلسوف بغداد في القرن العشرين » وانه لم يحس في حياته بالتقدير من وطنه ولا من الادباء .

وقال نقلا عنه : ان شدة حقه على المجتمع يرجع الى علة لازمتها طوال حياته . والمرء شديد الانفعال في مثل هذه الاحوال اذ يرى نفسه رازحا تحت ثقل الآلام حـالة ان غيره ممن ليس أجدر منه بنعم الحياة يتمتع بما لذ وطاب ويسير في الارض مرحا وعليه نجد شعره ضربا من الفلسفة الاجتماعية وقد أدركته علة في النخاع الشوكي وهو في منتصف العقد الثالث من عمره

فتبعتهما علل أخرى لم يكن الشلل إلا بعضها . لهذا كان يسير دائما راكبا وبرفقته خادمه الأمين . . فإذا ترجل توكا عليه حتى يصل الى مجلسه .

وكان الزهاوى يميل الى البساطة فى كل شىء ويتجنب كل كل ما يشف عن العظمة والعطوسة وكان بيته رمزا على بساطه عيشه . وكانت حديقة منزله على صغر مساحتها دليلا على حسن ذوقه وشدة ميله الى الطبيعة .

وكان الزهاوى يبسط آراءه بكل صراحة ولا يعيبا بانتقاد يوجه اليه وكان شديد الانفعال ينتقل من الغضب الى الفرح فى طرفة عين . ويقول ان الحياة أقصر من أن يضيعها المرء فيما يسوء .

وكان الزهاوى شديد الولع بمشاهدة السينما ويحب مصر وأدبها وفنها وتمثيلها وغنائها .

ويقول اسماعيل أدهم فى دراسة قصيرة له عن الزهاوى انه تأثر بشبلى شميل فبعد أن كان يؤمن بالدين أثارت هذه الفصول فى نفسه روح الجرأة على المقدسات وانه تأثر بالوهابية تأثيرا عكسيا فرد على دعايتها فى كتاب بعنوان : الفجر الصادق فى الرد على منكرى الكرامات والخوارق .

وان رأيه فى المرأة هو رأى أفلاطون الذى يرى ان المرأة

وان كانت أقل في الاستعداد الطبيعي الا انها تقرب من
استعداد الرجل .

وقال اسماعيل أدهم ان أبرز معالم شعر الزهاوى اتجاهه
العقلى فى الشعر بعيدا عن الخيال والتأمل الفلسفى وانه جعل
الشعر رسالة العلم . وقد جمع بين العقلية العلمية مع القدرة
على النظم . وكان فى احساسه الشعور بسبق الزمن .

الادب العراقي في عصره

كان العراق في العصر السابق لاعلان الدستور العثماني . . يعيش في جو مظلم حائق من دسائس السلطان عبد الحميد . لم يكن هناك من يجروء على كلمات الحرية والاستقلال وفي خلال هذا العهد هاجر جميع احرار الفكر الى مصر وتركوا البلاد التي تحكمها تركيا العثمانية . . واكتفى الزهاوي بأن ينظم نفاتات قلبه ويرسل بها الى المؤيد والصحف المصرية مهاجما عهد عبد الحميد ومطالبيا بالحرية والسفور . فلما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ قوبل ذلك في العراق بالفرح الشديد والتهليل أملا في الفرص التي سيتيحها الدستور للناس في حرية القول والرأى والنشر . وكان الزهاوي في مقدمة الذين اهتزوا لهذا الحدث الكبير .

وبدا الادب العراقي يدخل في دور جديد حيث انبعثت منه حركة أدبية ضخمة . كان قوامها مدرسة الالوسي في بغداد وعميدها محمود شكرى الالوسي . ومفتدى الشيخ أمين غالى في البصرة ومكتبه دير الادباء الكرمليين ببغداد .

كما حافظت النجف على استقلالها الادبي وتراثها الروحي فما زالت دار علم ومدرسة للثقافة فيها أسر قديمة توارثت

طلب العلم والادب خلفا عن سلف وأساتذة ممتازون في المنقول والمعقول ولها مكتبات غنية بما ينشده الباحث والاديب (١)
وقد أقامت الطبقات الادبية التي ظهرت في هذا العصر ادبها على أنقاض أدب النجف الطبطبائي والفحام والنحوى والاعيسم . ومن شعراء الحلة جمهور الحلى ومحسن الخضرى وسعيد الحبوبى .

وقل في هذا العصر المدح فى الشعر وكثر الوصف . واتجه الشعراء الى وحدة الموضوع فى قصائدهم بدلا من تعدد المواضيع . وشاع الشعر السياسى والاجتماعى . ولم تنس العراق ادبها التقليدى الرائع : الادب العسلى الحسينى الذى يحمل دعوة الكفاح والجهاد . . ويرسم صورة البطولة والدفاع عن النفس والعقيدة وذكر امجاد الاسلام والعراق ولعروبة وقد كان للنهضة الادبية الحديثة فى العراق أثره الواضح فى الفصائد والملاحم الجديدة التى تحدثت عن التضحية والبطولة .

ولم يلبث العراق بعد قليل ان ثار ثورة عارمة مجيدة تحدثت عنها القاصى والدانى سنة ١٩٢٠ كانت بداية عصر التحرر والوطنية . . انتهت معها معالم الاستبداد العثمانى وظهرت القومية العربية جهيرة حية واضحة . وبدأت مرحلة

١ محمد رضا الشيبينى : بحث فى المجمع اللغوى ٢٠ ديسمبر

سنة ١٩٤٨

جديدة من مراحل الكفاح لمقاومة الاحتلال البريطاني وارساء قواعد حياة وطنية جديدة قوامها الدستور والنيابة والعهد الجديد الذي كان على رأسه فيصل ومن بعده غازي وفي خلال هذا التاريخ الطويل كان الزهاوي والرصافي والجواهري والكاظمي أبرز شعراء الفترة .

وقد كانت مظاهر الادب العراقي كما صورده الاستاذ الشبيبي جزالة عربية في الالفاظ ومحاكاة للقدماء وجمود على الفنون الشعرية المألوفة حتى جاء الزهاوي والرصافي فجلبوا الشعر ودفعاه دفعة قوية الى الامام حيث حرراه من بعض قيوده فاتجه الادب العراقي الى الواقعية وكان هذا تطورا طبيعيا حيث زالت نظم مألوفة في الحكم وحلت بدلا منها اخرى استتبع تغيرا في اساليب الفكر والنظم والكتابة .

وقد كان شعر الزهاوي والرصافي والكاظمي على الاختلاف البعيد في اتجاهاتهم واساليبهم ترجمانا لحياة العراق وما يجيش في نفوس أهله وما وقع فيه من أفراح ومآسى . ومن ناحية اللفظ يتجلى في الشعر العراقي رصانة في مبناء وصفاء ديباجة وبيان مشرق . . ولعل شعرا في العالم العربي لم تقم فيه دعوة قوية الى التجديد والتطور والتعامل على القديم مثلما حدث للشعر العراقي .

يقول الدكتور زكي مبارك أن الادب العراقي الحديث انتفع بثلاثة ينابيع : أولهما الادب الفارسي . . والادب التركي والادب المصري هذا بالإضافة الى الادب العربي القديم .

وقد نظم الزهاوى الشعر بالفارسية يوم ذهب الى ايران
للاشتراك فى احياء ذكرى الفردوس .

وقد عرف الشعر العراقى الشاعر الفيلسوف فى الزهاوى
والشاعر الاديب فى الرصافى وفى الشاعر العربى التقليدى فى
الكاظمى وفى شعر الموشحات فى الجببى .

ويتميز الادب العربى بالحديث عن الامة العربية ويرسم
صورا كثيرة من الشام ومصر .

فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر . والاخوانيات من
ابرز مظاهر الادب العراقى فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد
وقال زكى مبارك أن شعراء العصر فريقان . . فريق يترسم
خطى شعراء الجيل فى الماضى القريب ويجسرى على سنتهم
المعروف فى المذاهب والاساليب مع نبيء من التجديد : أحمد
الضافى والحيوبى واليعقوبى والجواهري والمقلد والخطيب
والجعفرى وشعراء الرابطة العلمية الادبية فى النجف والفريق
الاخر من شعراء الشباب الذى يميل الى سجارة الغربيين ويحاول
أن يتعاطى النظم على طريقتهم المعروفة وعددهم قليل .

وللادب العراقى الحديث فى مراحل فترات من اظهرها
جنوحه الى التشاؤم والشكوى . ووصف مظاهر البؤس
والحرمان فى كثير من الاحيان ومن مميزاته نزوع ظاهر الى
العنف فى مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن حقوق الطبقة
المحكومة .

وفى ميدان النشر طائفة من الباحثين والعلماء المنقطعين

للدراستات الفكرية يؤلفون ويدرسون وينشرون ولهم مؤلفات
وتصانيف أبحاث منهم بهجت الاثرى ومصطفى جواد وعباس
غزاوى وجواد على وأحمد سوسة وكوركيس عواد

وقامت الصحافة العراقية بدور ضخم فى سبيل الحركة
الوطنية العراقية وكان لكتابها جهاد ملحوظ ويقول زكى
مبارك أن المقالة القاسية فى جريدة عراقية .. فهى تزلزل
احساس الجمهور أعنف الزلزال . وقد أغلقت جريدة عراقية
لأنها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج لأنها تناست الفرق بين
الهياج والطفيان .. فالهياج يضاف الى السكان أما الطفيان
فيضاف الى الماء .

وهكذا يبدو الزهاوى بعيد الاثر فى أدب العراق . اشترك
فيه أكثر من خمسين عاما فى ثلاث عهود .. قبل الدستور
وبعده وفى عهد الاستقلال والوطنية . وناصح عن العراق والعرب
والحرية الفكرية وطالب بتحرر المرأة . وهز قوائم المجتمع
الغربي بدعوته الحرة وجرائه الخالصة واندفاعاته المتحررة فى
تجديد نظم الشعر وتوجيهه من التقليد والعنسية باللفظ ..
وموضوعات الشعر القديمة الى الاقتحام فى ميدان السياسة
والاجتماع والاختراعات الحديثة وحمل لواء التجديد .

وقد واجه المحافظون الزهاوى بالنقد وقاوموا دعوته وأسلوبه
ولكن الزمن تغير وأصبح الزهاوى مظهرا واضحا من مظاهر
الادب العراقى وقمة من قممه ومفخرة من مفاخره . فقد كتب
للادب العراقى صليحة مشرقة ومثل فى الادب العربى المعاصر

زاوية حية •

وحق ما قال الزهاوى أنه سيأتى اليوم الذى يدرك فيه المؤرخون مدى عظمة الدور الذى قام به وفى العراق اليوم تلاميذ الزهاوى وشباب العراق الذين غنى لهم الزهاوى سنوات وسنوات يسировن على نهجه ويؤمنون به •

واليوم وقد مضى على موت الزهاوى بضعة وعشرين سنة فقد بطلت الخصومة وزال الخلاف وآمن العراق بأن الزهاوى كان علما من اعلام الحرية فى تاريخه وانه دفع العراق الى الامام بقوة •• وأن هباته هى هبات البشر التى لا تتخلف مع الطبائع الانسانية لاسيما بالنسبة للزمن الذى عاش فيه وما كان فيه من ظلام واستبداد • وبالنسبة لحياته الطويلة المديدة ••

واليوم نرى الزهاوى وهو يعثل ركنا قويا من أركان الادب العربى المعاصر وجانبا هاما من جوانبه بالاضافة الى زملائه واترابه شوقي وحافظ ومطران والرصافى والكاظمى واليوم حين أتم هذا البحث أذكر انى اعددت بحثا عن الزهاوى سنة ١٩٣٩ وأنا فى مطلع الحياة الادبية وقد قلت فى مقدمة هذا البحث : ما عشقت فى حياتى قدر رغبتى فى الكتابة عن هذا الرجل الشاعر الذى يغلب سحر كلمة على روحى فيردنى عن الحياة الى أجواء تسمو وتسمو حتى تبلغ عنان السماء •

وفى سنة ١٩٥٤ كتب عدد من الدراسات عن الأدباء

المعاصرين (١) من بينها دراسة عن الزهاوى أنقل منها ما قد يكون مكملا لهذه الدراسة من جوانب حياته

ظل الزهاوى سابقا لعصره متهما بين أهل جيله وبدد بالزندقة والجنون والالحاد . وقد منح العن الطويل وتقلب الزمن حيث عاش الى سن السبعين مسحة من القداسة الرائعة خاصة بعد ان تخطت العراق مرحلة الانتقال . وقد اضطر في ابان محنته الى بيع معظم كتبه ولعل دفاعه عن حرية المرأة متصل الى حد كبير باثر المرأة في حياته وفنه وقد أثرت عنه في ابدن اقامته في استانبول مغامرات وضميمة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق . ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يالف العشق الطويل المدى . ويبدو أن الزهاوى في الحب أشبه بشوقي فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل الى أعماق الحب ولا يسبر غوره وهو ليس من الروحيين الغزليين وأقرب الى الواقعية الادمية ولا تجدد عنده تلك الحرارة الدافقة في العاطفة

ولعله وجد في مصر أيضا سبيلا الى عاطفة أو حب . وهو في كل أحواله عن المرأة والدعوة الى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم . . اذ أنه لم يستجب لذلك في حياته الخاصة . فقد كان الزهاوى زوجا وكان زوجته متحجبة . وقد وصفت هذه الحياة بأنها كانت هادئة مرضية لنفسه . وقد تزوج الزهاوى

في سن مبكرة . وأمكن أن تهيم له زوجه استسباب الراحة
والنفسية على ما به من شذوذ . . . إذ كانت خير معزى في المحن
الفكرية والسياسية التي تعرضت لها . . . وفي خلال سنوات
مرضه بأعصابه فقد كانت تعنى به عناية الأم بطفلها وتهتم
بهدامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه أبان سفره الى مصر
وسوريا . ومن أبرز معالم حياة الزهاوى الخاصة انه لم يوزق
أولادا ولعل ذلك كان مصدرا من مصادر اضطرابه النفسى .

وقد وصفه بعض النقاد بأنه ناظم وليس بشاعر وقال عنه
النقاد يوسف جورج : انه ليس شاعرا . إذ أن الشاعر يعتمد
على العاطفة والخيال قبل العقل . والزهاوى كان لا ييسالى
المواطف والخيال أبدا .

وبعد فالزهاوى قوة أدبية كبيرة في تاريخ العراق الذى أحبه
وفي تاريخ الادب العربى المعاصر . . . وهو علم من أعلام الفكر
والشعر والفلسفة العربية الحديثة يمثل جانبا واضحا هو
الحرية الفكرية والتجديد والدعوة الى الإصلاح الاجتماعى . .
رحمه الله .

أنور الجندى

الشركة العامة للبترول

١٤ شارع سليمان باشا القاهرة

تعلن الشركة عن مناقصة عامة لعمليات نقل مهمات
ومعدات - لمدة عام - ويمكن الحصول على دفتر
الاشتراطات من إدارة العمليات بالشركة نظير دفع رسم
قدره ٢ جنيه - اثنين جنيه تقبل العطاءات حتى ظهر يوم
الاثنين ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٠ م

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور - القاهرة
ص ٠ ب ٢٣٩٨
